قصص عن زمن وثني

حسين جميل البرغوثي

هذه قصص عن هذا الزمن الغامض ـ الواضح، الذي سمّاه القرآن الكريم «جاهلية»، ويمتد إلى أكثر من مائة وخمسين سنة قبل مجيء الإسلام في القرن السابع للميلاد. وتدور حول برهنة نقطة واحدة: كيف بزغت بحور الشعر العربي من عبادة الربة القمرية البيضاء، عشتار، وهيئاتها المختلفة التي كانت تعرفها العرب.

ليس هذا «بحثاً» فيه أحفظ شيئاً وتغيب عني أشياء، بل حدوس، وتخيلات، وشطحات، أيضاً، ورغم ذلك مزروعة في التاريخ الفعلي. غايتي سبر طريقة التفكير، والإدراك، الذهنية الجاهلية ذاتها، سحرها، ومعتقداتها، وكيف كانت ترى ما ترى. فأحلم التاريخ أكثر مما أتبعه، وأتبعه أكثر مما أخونه، وأحاول أن أقبض على حلم وثني لم يعد موجوداً، وأركز على معلقة امرىء القيس تحديداً، وأربط بين معلومات متناثرة لم يربط بينها أحد حتى الآن، كي تبزغ صورة مذهلة لعبقرية قديمة لم تزل أكثر من معاصرة، لمن يتأملها جيداً.

هذه عبقرية جذورها الأولى ضائعة، وتطل من نتف مفككة، من هذا الطراز أو ذاك، من أساطير وحقائق، ذكريات ونبوءات، سجع كهان ومعلقات، روايات وروايات مضادة، مطلسمات وموضحات، في زمن ـ أسطورة قدره أن تنسج عنه أساطير أخرى، تنسج عنها أساطير أخرى، وتلوح وكأن لا رأس ولا ذنب لها، أو ركاماً ينقض بعضه بعضاً. وأحاول أن أحلمها، فأسقط روايات وآخذ بأخرى، كي أقبض على «نواة الروح»، فبعد هذا فقط يمكن فهم سرّ تضارب الروايات عن هذه الذاكرة التي لم تزل تتوالد، متجهة نحو المستقبل. وقد يكون كل ما قلته خدعة، أو وهماً فنياً، فهذه، في نهاية الأمر، محض «قصص» غريبة عن أزمنة أغرب.

|

أيامها، كانت «الأشياء» تنطق، والحجارة رطبة وتحلم، وكانوا يعبدون الحجارة، والإبل، والنجوم. رجل يدعى «قيس»، قيل: إنه هو نفسه امرؤ القيس، جاء إلى كعبة «ذي الخلصة»، وهي كعبة «مؤنثة» من بقايا عبادة عشتار: صخرة بيضاء عظيمة، أعلاها منحوت على هيئة إكليل. وكانت العرب تعلق عليها بيض النعام الأميل للصفرة، والسيوف، والحليّ، والقلائد.

قعد امرؤ القيس أمام ثلاثة «قداح»، وهي أسهم من خشب بلا نصل ولا ريش، كُتب على أولها: «الآمر»، ومن يسحبه ينفذ ما ينوي عليه، وعلى الثاني كتب «المتربص»، ومن يسحبه، ينتظر ويتربص، وعلى الثالث، «الناهي»، ومن يسحبه يكف عن فعل ما نوى.

كان امرؤ القيس أميراً شاباً، ماجناً، قيل: إنه راود حتى نساء أبيه عن أنفسهن، فطرده أبوه من البيت، وتصعلك زمناً، وكان من رواد الحانات، والنساء. وفي ذات يوم، قبل قدومه إلى كعبة ذي الخلصة، كان يسكر ويلعب النرد، في حانة في اليمن، حين قيل له: إن قبيلة بني أسد قتلت أباه، فقال جملته الشهيرة: «اليوم خمر، وغداً أمر». وأراد الثأر لأبيه، فجاء إلى «الضرب بالقداح الثلاثة». قعد وسحب سهماً منها، فكان «الناهي» (عن الثأر)، فسحب ثانية، فكان الناهي، فسحب ثالثة، فكان الناهي. فغضب، وجعل الأسهم حزمة واحدة في يمناه، وصفع بها وجه ربه قائلاً: «لو قتلوا أباك لما عققتني.» (أي لما دعوتني للكف عن الثأر.)

أكاد أراه وهو قاعد يقدح بالسهام، والبدر صقر فضي يفرد جناحيه فوق شبه جزيرة العرب. كانت الربة البيضاء، عشتار، تمر بثلاثة أطوار:

حين تولد تكون هلالاً، وتتحول، في ثالث ليلة، إلى قمر، ويكبر نورها الهلالي ليلة بعد ليلة. ويرمز لهذا الطور، عند العرب، سهم واحد من السهام الثلاثة التي ضرب بها امرؤ القيس. وحين يكتمل نورها في الليلة الرابعة عشرة من الشهر تصير بدراً. والقرص البدري هذا كان يدعى، عند البابليين، «تاج السهول»، أو «إكليل» عشتار، وهو الإكليل المنحوت في أعلى كعبة ذي الخلصة. وفي كمالها البدري تلبس قلائد من الحجارة الكريمة، وتضع على خصرها ألواح «الأقدار السبعة». هذا هو «القمر الأبيض»، ويرمز لهذا الطور، عند العرب، السهم الثاني. بعدها تتجه الربة البيضاء إلى عبور بوابات «الظلمات السبع»، وتخسر في كل بوابة شيئاً من نورها، حتى تغيب تماماً في «المحاق». هذا هو «القمر الأسود»، أو «المظلم»، ويرمز له السهم الثالث.[1]

في كل طور من أطوارها الثلاثة تحدد عشتار شيئاً من مصير الناس على الأرض، يوماً بعد يوم. ومن ينوي على فعل، من أي نوع كان، يمكنه أن يضرب بالسهام ليأخذ «رأي الربة».

لونا «القمر الأبيض»، و«القمر المظلم»، أي: الأبيض والأسود، مقدسان للربة، وكذلك الحجارة البيضاء والسوداء. وامرؤ القيس كان يعي أن كعبة ذي الخلصة «صخرة بيضاء»، تسبح في ضوء القمر، ومقدسة. ونسبة لأطوار عشتار، كان رقم ثلاثة مقدساً في كل شبه جزيرة العرب، تقريباً. فهو عدد مرات الضرب بالسهام، وعدد أطوار القمر. هذا هو سر مطلع معلقة امرىء القيس: «قفا نبك». فتلك إشارة إلى متكلم يأمر اثنين آخرين، غيره، أن «يقفا»، فعدد الأشخاص ثلاثة. وهذه الصيغة الثلاثية شائعة في شعر العرب، وتعني، أيضاً، قدسية «المثلث» (عدد زواياه، أو عدد أضلاعه)[2]. وكان امرؤ القيس يعرف هذه «الصيغة الثلاثية المقدسة» أكثر مما يمكن أن نتخيل.

لما أفاق من سكره، مثلاً، ونوى الثأر لأبيه. شاع خبر نواياه ووصل بني أسد، فأوفدت هذه إليه وفداً. فاحتجب عن رؤية الوفد «ثلاثة» أيام، ثم خرج معتمراً (لابساً) عمامة سوداء. فعرض عليه الوفد «ثلاثة» خيارات: إما القصاص (أن يقتل شريفاً من شرفاء بني أسد بدلاً عن أبيه)، أو الفدية (أو يقبل الديّة)، أو أن يتمهل «حتى تضع الحوامل أجنتهن»، ثم تكون حرب. فاختار الثالث. ولا حدّ لمثل هذه «الصيغ الثلاثية» في حياة العرب، وحياته.

بعيداً جداً عن كعبة ذي الخلصة، حيث يقعد الآن، تقع كعبة مكة، سيدة الأمكنة والكعبات

جميعاً. وكل وثنيّ كان يجد نفسه بعيداً عنها كان يقوم بطقوس غريبة:

ينتقي أربعة حجارة، ولو وصل بينها بخطوط مستقيمة على الرمل لتَكوَّن أمامه «مربع مقدس». بعدها ينتقي خير هذه الحجارة، وأفضلها، ويدور حوله سبع مرات، بعدد مرات الطواف بالكعبة في موسم الحج. لم يحلل أحد أبداً هذه الطقوس، وبقي سرها مبهماً. هذا الحجر الأخير يدعى «حجر دوار»، ويذكره امرؤ القيس في معلقته:

وعنَ لنا سربٌ كأن نعاجهُ «عذارى دوار» في ملاء مُذيّل

حيث يبدو أن عذارى العرب كانت تطوف بهذا الحجر سبع مرات. بعدها، يقوم الوثني بجمع الحجارة الثلاثة الباقية، وينصب عليها «قدره» الذي يطبخ فيه قرابينه للآلهة. لا يتوازن القدر إلا على ثلاثة أحجار، ولو وصل بينها بخطوط مستقيمة على الرمل، لتَكوَّن «مثلث» مقدس.

هكذا يبدأ صاحب الطقوس بمربع، أي بأربعة حجارة، ثم يشتق من هذا المربع مثلثاً، أي «الأثافي» الثلاثة التي يطبخ عليها. ومجموع زوايا المربع والمثلث سبعة، وهو عدد مرات الطواف حول «حجر دوار». كان موسم الحج نفسه يأتي في الأشهر الأربعة الحرم (المربع المقدس)، ويكون في الشهر الثالث منها (المثلث المقدس). سأعود إلى المربع الذي يشتق منه مثلث، لاحقاً. ولأعد الآن إلى امرىء القيس نفسه. كيف كان يرى إلى كل هذه القصص؟

سأحاول أن أتخيل نفسي في ذلك الزمن الوثني، أي أن أتقمص شخصية رجل في قافلة عائدة إلى مكة في إحدى الليالي المقمرة، وتمر بما يمكن أن يمر به رجل وثني ما، لاضاءة ما سبق بشكل أكمل.

|

أيامها، كانت أماكن شاسعة بكاملها محرمة، ولا يقربها أحد، وتسكنها الجن. وكانت الليلة مقمرة، وكنت مع قافلة تمعن في أرض الجن المحرمة. كنا قادمين من مجاهيل الصحراء، ونرتجز (أي ننشد شعراً من نوع «الرجز») على وقع خطى النوق. عبرنا قرب واد غريب، فيه الشجر كتل ظلال تتماوج، وبدأت النوق ترغي، ودبّ هرج ومرج بين رجال القافلة. وكان دليلنا رجلاً من «بني سهم»، يغزل طرق الصحراء كأنه إبرة، ووجهه حرباء تتلوّن حسب الطريق، من خوف الهلاك. كان خائفاً من رغاء النوق، فرفع يده، وقال:

«باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، قفوا! نحن على حافة وادي عبقر!»

وأشار إلى بطن الوادي، نحو كثبان رمل مقمرة وناعمة، وإذا بكائن، على هيئة إنسان، يسوق «ظليما» (ذكر نعام) مربوطا من خطمه بحبلة من الكتان. كان مقبلا من عمق الوادي، فاستوحشنا منه، وحتى الإبل بدأت ترغي وتتراجع بنا إلى الوراء ومرق قريبا منا، كان أطول من ناقة، ورأينا ظهره عاريا، وفيه نمش أخضر، مثل طحالب تتشعب على سطح ماء آسن، فارتعبنا. وقف بعيداً عنا، وتلفت نحونا، وحدق فينا مدة كانت كافية لنتحول إلى تماثيل من ملح تحت القمر، ثم قال للدليل:

«يا ابن سهم الخشب: من أشعر العرب؟»

كان الدليل خائفا فلم يجب. فواصل:

«أشعرهم من قال:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بعينيك في أعشار قلبٍ مقتّل»

فعرفنا أنه يقصد امرأ القيس.

«باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من أنت؟» قال الدليل، ورجع إلى الوراء حتى كاد يقع.

«أنا لافظ بن لاحظ، من كبار الجن، لولاي لما قال صاحبكم الشعر!».

ومضى، مقهقها. وقف دليل القافلة مذهولا، وحدق فيه حتى أختفى. قلنا له:

«فما تقول في هذا؟» فقال:

«هذا لافظ بن لاحظ، شيطان امرىء القيس الذي يملي عليه الشعر، كما تعتقد العرب. ولافظ هذا من «وادي عبقر»، وكل شاعر يملي عليه شعره أحد جن أو شياطين هذا الوادي يدعى «عبقرياً».٣

مشت القافلة، وكنت متعبا، فحدقت في نجوم الصحراء الأبدية، وشرد ذهني إلى ما سمعت ورأيت. حولي كثبان مقمرة ناعمة، مستديرة، كموج البحر، ونهود الكواعب، وبطون الحوامل، ومدارات الكواكب، وفوقي سماء واسعة تشبه نصف دائرة وشعرت بأنني في فضاء خال لا شيء فيه، وفيه ما لا عين رأت.

غفوت على ظهر الناقة، فرأيت، فيما يرى الحالم، كثبان رمل ناعمة، هناك، بعيدا، وعليها كتلة سوداء غامضة كانت تتضح كلما اقتربت. وكانت تقترب من ثلاث أشجار من الحنظل لها ثمر مرّ، ثلاث أشجار واقفة وحدها في الصحراء، تحت النجوم، ولو وُصِلَ بين الثلاث بخطوط مستقيمة، لتَكوَّن مثلث متساوي الساقين.

شبح كان يمشي على أضلاع المثلث، متنقلا بين الأشجار الثلاث، كظل، ويجمع من كل شجرة ثمرة. ما الذي يفعله هذا الكائن بالثمر المر؟ كان الشبح يجمع الثمر في حجر ثوبه، وبفمه يمسك طرف ثوبه كاشفاً عن فخذيه الرفيعين. وأخيراً جلس في وسط المثلث، فنقع الثمر في سطل ماء كان هناك. وأشعل نارا، ووضع السطل عليها فوق أحجار ثلاثة. ففهمت أن الكائن يزيل مرارة الحنظل بهذه الطريقة ويجعله صالحا للأكل. فجأة سمعت صوتا ينادي على الشبح، من مكان مستور، أو من تحت الأرض:

«يا هبيد، يا هبيد»!

استيقظت من هذه الرؤيا التي تشبه الحلم، ومسحت عينيّ مرتعباً، لأن هبيدا هذا هو اسم شيطان عبيد بن الأبرص في الشعر. و«هبيد» هو الحنظل المطبوخ بعد نقعه في الماء لتزول مرارته. كانت قريش تأكل الثريد. والقبائل الأفقر تأكل الهبيد. ويبدو أن الشيخ من قبيلة جن فقيرة.

كان عبيد بن الأبرص صديقاً لامرىء القيس، وأكبر منه سناً، ونشأ معه في ديار بني أسد.

ولكن طبيعة شعرهما مختلفة جداً، لأن هبيدا يختلف كثيراً عن لافظ بن لاحظ، فهو يعصر سم الروح و«هبيدها». أي حنظلها المقطّر، وينقعه بماء القلب ويطبخه، فيحيله إلى شعر عبقري بمذاق التمر. هبيد «يذوق»، ويبدو مثل لسان الحية الذي تتحسّس به الأشياء. وشعر عبيد كروح هبيد: شيء يذاق باللسان، «طعمه» أساسه.

حدثني رجل يدعى «القرشي»، وكان معنا في القافلة، قصة عن هبيد هذا قال:

«أحد رجالات الإنس أراد أن يصبح شاعراً، ولا سبيل إلى ذلك إلا إن ألهمته جن من «وادي عبقر». وحدث، في ليلة مقمرة كهذه، أنه كان سائراً في الصحراء، وانتابه عطش شديد. وآنس (رأى) كائنا يبدو إنسيا، فمال إليه، لكي يروي ظمأه. ناوله ذلك الكائن طاسة من لبن ظباء فيه «هُزومة» (رائحة نتنة لا تطاق)، فلم يستسغه الرجل، فبصق اللبن، وأعاد الطاسة إلى صاحبها، وأدار ظهره، ومضى. فصاح به صاحب الطاسة، الذي لم يكن إلا هبيدا نفسه:

«لو كرعت (دلقت) هذا اللبن في بطنك لأصبحت أشعر قومك!».

فندم الإنسي ندماً ما بعده ندم».

شاعرية هبيد «طاسة من لبن ظباء» فيه «هُزومة». والشعر يبدأ باللسان، وبمعدة قادرة على كرع شيء كهذا. لكن «لافظ بن لاحظ»، كما يدل اسمه، فنان في «اللفظ»، و«ابن لاحظ»، أي ابن من «يلحظ»، أي «يرى» صوراً من وادي عبقر. «يلحظ» امرأة عادية، فتبدو له مثل منارة راهب مسيحي رومي في الليل، في كنيسة عالية الأقواس، فيها راهبها يحمل شعلة سراج زيت، ويجيل بصره في الأقواس فلا يرى، فيميّل السراج إلى جهة مظلمة كي يزداد نور الفتيل، فيصعد دخان وضوء شاحب ترقص منه ظلال على السقف والحيطان.

لاحظ يرى، ويلفظ ما يرى، ويسحر رؤيا ولفظا. «هبيد» في مطبخ الروح، ولافظ بن لاحظ في بؤبؤ عينيها! وامرؤ القيس في بؤبؤ الشعر. ومن هو عبيد بدون هبيد، وامرؤ القيس بدون «لافظ بن لاحظ؟».

وحدثني القرشيّ نفسه، قصة عن لافظ بن لاحظ هذا، فقال:

«كنت وحدي أسعى بناقتي في أرض الجن المحرمة، حين وصلت مدخل أودية موحشة تبدو كبطن ناقة خاوية، وشعابه موحشة ووحيدة، وشعرت بالخوف، والجوع، وربما خوفاً. أجلت نظري حواليّ فآنست نارا، في منعطف الوادي، أمامي، قلت سأميل إلى النار قليلاً، فقد أجد أعرابياً هناك، أستريح عنده. فوجهت ناقتي نحو النار.

عبرت في واد لا شيء فيه، ولا شجرة ولا غزالاً، وبدت الناقة وكأنها تسبح في موج خفي،

وعنقها تمتد إلى الأمام ثم ترجع، راسمة شكلاً هندسياً، أو هكذا تخيلت، وكانت الريح جارحة، وكان البرد قراً، والناقة تسبح. حاولت أن أوقفها، فاشتد سعيها بين الحجارة، وإذا بعجوز نحيف، بيده ناي يعزف عليه، فوقفت الناقة بين يديه، كأنها تعرفه. وقفتْ بدون أن يوقفها، كما انساقت إليه بدون أن يسوقها. فحدقتُ في الاثنين معاً: الناقة والمغني!

وضع المغني الناي جانباً، ورمى حطباً، من كومة قربه، في النار، وتململ قليلاً ثم نظر إليّ. ومن البعيد، من أعماق الوادي المخفية، سمعت غناء وإيقاعاً غريباً، هل دخلت قرية جن؟ وكمن وقعت على رأسه الطير، بقيت منغرساً في مكاني على ظهر الناقة لا أتحرك. وانتبهت إلى العجوز، فإذا بيديه على شكل أظلاف الأغنام وبقر الوحش، وعليهما شعر كثير.

وعندئذ أقبل ظليم من جهة الوادي، ووقف أمام العجوز، وقال:

«حملني بأثقل الأحمال، كي يخفّ حملي!».

وذهلت من هذا المنطق. وعرفت بأنني في منطقة سكانها غامضون. فقال العجوز:

«حللت سهلاً، ووجدت أهلاً. هذا وادي عبقر، وأنا كبير الجن، لافظ بن لاحظ».

قلت، وقد بهرني لطفه:

«رأيت وادي عبقر في الزمن الخالي، لم يكن هنا، بل هناك، في مجاهيل الصحراء، ورائي. «فأجاب:

«أرض الجن تنتقل بغمزة عين من مكان إلى آخر! ماضيك يبدو لك مستقبلاً!».

وبدأ العجوز يزداد طولاً حتى بدا الظليم أقصر من ثعلب، فركبه، ومضى مقهقهاً. وغاب حول منعطف الوادي، وسمعت غناءه يأتي من خلف الجبل:

لقد طوّفتُ في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

شعرت بالبرد، فجأة، فترجلت، وضممت عليّ ثوبي، ومشيت نحو النار التي لم تزل ترتجف. على الرمل، أمامي، رأيت مطلع معلقة امرىء القيس مكتوباً بطرف عصا أو ناي، تحت وهج النار:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقطِ اللوى بين الدخول فحوْمل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
رخاءُ تسحّ الريحُ في جنباتها كساها الصّبا سحق الملاء المذيّل

وتحت البيوت الثلاثة رسم لمربع في جوفه مثلث. لم أر، من قبل، رسماً من رسومات الجن يشبه هذا. فامرؤ القيس يخاطب اثنين غيره، فيقول لهما «قفا نبك..»، فعدد الواقفين ثلاثة. والثلاثة واقفون في بقعة واسعة من رمل دقيق، بين أربعة أمكنة هي: «الدخول، حومل، توضح، والمقراة»،

أي في مربع. فهو يتكلم عن مثلث في جوف مربع. وفي آخر بيتين يذكر ثلاث رياح، الجنوب والشمال والصبا، من بين أربع رياح مشهورة عند العرب: الجنوب والشمال والصبا والدبور!. أي يختار ثلاثاً من مربّع الرياح.

|

شرد ذهني، من حديث القرشيّ، إلى امرىء القيس. بعد أن أمر صاحبيه، قائلاً «قفا نبك»، بدأ يتذكر وقت رحيل حبيبته. كان ذلك بين آخر الليل وأول الصبح، في «الغداة»، وقت مقدس للعُزّى - (كوكب الصبح، أو الزهرة).

يقول نيلوس، وهو رحالة روماني مات في القرن السادس، عندما مر ببلاد العرب، في نواحي البتراء ودومة الجندل، أن ليس لهؤلاء «الهمج» دين، فهم يخرون ساجدين لكوكب الصبح. ينتظرون بزوغ هذه الربة، ومعهم «قربان»: أما أن يكون شاباً أبيض الوجه، من أسرى الحرب، أو ناقة بيضاء خالصة البياض. وعندما يطل كوكب الصبح يدور الكاهن حول الضحية ثلاثاً، ثم يضرب عنقها بالسيف، وينفجر الجمع بالنشيد، ويهجمون على القربان فينهشونه حتى لا يبقى منه شيء عند بزوغ الشمس(٤).

على كل، يدور كاهن العزى حول الضحية ثلاث مرات. وللعزى معبد في «وادي سعام»، قرب مكة، من ثلاث سمرات، تزورها قريش وتذبح لها القرابين. فالسمرات شجيرات مقدسة للعزى، إحدى إلهات الثالوث الأنثوي المقدس، والأكثر سطوة بين العرب: «اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى». ومعبدها «ثلاث سمرات»، كل سمرة ترمز لواحدة من ربات الثالوث، أو كل السمرات ترمز إليها وحدها، أي أن رمزها هو «المثلث»، الذي كان، تقليدياً، رمزاً للعضو الأنثوي.

وكل هذه «المثلثات» في عبادة العزى مرايا لعبادات عشتار، فقد كانت العزى تدعى، أيضاً، «عستروت»، وعبادتها منتشرة في بابل، وفلسطين، ولبنان، وسورية، وشبه جزيرة العرب، وكانت ربة بتراء الكبرى، وهكذا. ومعلقة امرىء القيس تشير إلى «أنشودة صباحية»، في وقت مقدس للعزى، أو لعشتار، وامرؤ القيس، كان واقفاً تحت شجرات «سمار»، بالذات، في «الغداة»، عندما فارقه أحبته:

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى «سمُرات» الحيّ ناقف حنظل

وتخيلته واقفاً، هناك، تحت السمرات، مطرقاً، وكأنه يقشر حنظلاً مراً، ويتذكر أيام ملذات، وعربدة، وخمر. وقد كانت احتفالات العزى، قديماً، ماجنة، فيها يسكرون ويمارسون الجنس المختلط. وربما أن لهذه الاحتفالات صلة بكون بعض النساء كن يكحلن عينا واحدة، ويحلقن نصف شعرهن، ويخرجن إلى السوق، ويحجلن على قدم واحدة، داعيات الرجال «إلى النكاح قبل أن يجيء الصباح». فمن أسماء العزى «عتر»، ويعني، أيضاً، «الفرج» (العضو الأنثوي والذكري معاً).

* * *

وانتبهت إلى القرشيّ الذي كان يقول:

«حدقت في رسم الجن الذي رأيته، وفي النار، وانتبهت إلى جلبة في الجبل القريب. نظرت

بخوف، فاذا ببقر تهرول من سفوحه والنار تدب في أذنابها التي بدت لي مشاعل صغيرة. بعض العرب يستسقي المطر في الجفاف بإشعال مواد تلتصق بأذناب البقر، فتهرول هاربة نحو الوادي، وهم ينشدون ويتصايحون تيمنا بالمطر، وليس الفصل فصل جفاف، فمن هؤلاء الذين أشعلوا ذيول البقر؟ وبدا لي أنني في اليمن، إذ لا بقر مستأنسة إلا هناك.

ولعلني في قرية جن، فكرت خائفاً، حتى لو هربت، فإن أحياء الجن وخيامها تنتقل بطرفة عين، ولا مناص من الأمر، فانثنيت على نفسي، وحدقت في النار أمامي، واستسلمت للدهر، من بعيد، بعيد جداً، كان يأتي غناء كبير الجن:

«لقد طوّفتُ في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب».

كانت حكايات القرشي مسلّية، كهيئته. قلت له:

«علقت العرب المعلقات على ستائر كعبة مكة، والكعبة معبد قمري، وإن في هذا لطعم صلة غامضة بين شعر العرب وبين الدورة القمرية. ماذا تظن؟».

قهقه عالياً، وهز رأسه، وقال:

«بأبي أنت وأمي، مكة ليست بلد شعر بل بلد تجارة، وكل همّ قريش تجارتها. عندما سأل بيزنتيوم، مؤسس القسطنطينية، عرافاً عن أفضل مكان آمن يبني فيه مدينته، قال له العراف: ابنها في مقابل بلاد العميان! والمعلقات معلقة في مقابل بلاد العميان!. فلا همّ لقريش إلا أكل اللحم «صريحا لا خليط له، وقولها: رحلت عيرّ، أتت عيرُ» (رحلت قوافلها وأتت قوافلها).

فخذ عني هذا: تقدس العرب الدائرة، والمربع، والمثلث. هذا هو معنى دوران العرب حول الكعبة سبع مرات في موسم الحج، أو حول «حجر دوار»، ومن العرب من يدور حتى حول ناقته، أو حول كومة من تراب يصب عليها حليب شاة. المعلقات دوائر يا صديقي، وهذا ما لا يراه عميان العرب، سأحدثك عن شيء غريب وقع معي في موسم الحج الماضي».

ومد يده إلى قربة ماء، كانت معلقة في رحل ناقته، فشرب بنهم حتى طفح الماء على لحيته، وقال: وهو يربط عنق القربة بخيط جلد:

«إعلم أنني لم أكن أستغرب شيئاً، حتى تلك الليلة المقمرة، في موسم الحج الماضي، كنت نائماً في ساحة بيتنا، تحت النجوم، في مكة. حين سمعت هاتفاً يهتف بي أن تعال، تعال، واستولت عليّ قوة غريبة، فنهضت كشبح، وخرجت من الباب، وشعرت وكأنني كائن آخر، لست أنا، وكأنني استحلت في الليل غولاً، عندما مسني ضوء الرب «هبل»، وهتف هاتف بي أن تعال، نهضت وأنا أتبع الصوت مسحوباً من أذني بخيط خفيّ، عبر الأزقة المقمرة، فوصلت باباً بمصراعين فدخلت، وصعدت السلم إلى سطح بيت عال، مطل على مربع الكعبة، أو مكعبها.

كانت هذه ليلة طواف العرايا، حيث تطوف طائفة من نساء العرب حول المربع المقدس، ليلاً، ورأيتهن: كنّ يضعن يداً على عجزهنّ. ويداً على منطقتهن الأمامية، ويغنين:

اليوم يبدو بعضهُ، أو كلّه!
وما بدا منه، فلا أحلّه.

لأن الاعتقاد بأن العرايا، حينما يتعرضن لضوء القمر، يحبلن منه، وتغطية «ما بدا منه»، والغناء في الطواف، استعاذة بالرب القمري، «هبل»، من أن يفعل بهن هذا. كن يطفن، كموجة من غناء، سبع مرات، فأقرب سرب منهن كانت الدائرة التي يرسمها بخطاه تلامس زوايا الكعبة، والأبعد يرسم دوائر أوسع فأوسع. وأنا سارح فوق السطح، شارد الذهن في عالم آخر، سمعت غناء ساحرا، ورأيت كبير الجن، لافظاً بن لاحظ، قادماً من بعيد، يركب ظليماً (ذكر نعام)، ويغني:

«وما ذرفت» عيناك إلا لتضربي بعينيك في أعشار قلب مقتّل»

وشعرت بأن الرياح هبت عليّ معا، وصرت في الريح رملاً، وصعد راكب الظليم إلى نفس سطح البيت الذي كنت عليه. والعرايا لم يزلن يدرن، ويتمسحن بزوايا الكعبة الأربع، وينشدن، ويرسمن دوائر سبعاً حول بيت الإلهة، ولافظ بن لاحظ يصغي للنشيد، وبدا لي من العماليق، وكان عليّ أن أنظر إلى الأعلى كي أرى جبينه، ولو أدت بي النظرة إلى أن أمسخ حجراً أسود كحجر الكعبة.

وماذا رأيت؟

رأيت أفقاً أكثر مما رأيت جبيناً. ولوهلة رأيت عينين شاسعتين، كالصحراء والبحر: من يقف فيهما لا يستره شيء، لا «صحرة» ولا «بحرة»، وفي شعره الأسود الأجعد، أعشاش حمام، أو بقع ربيعية فيها غزلان وأسراب من بقر الوحش، أو هكذا بدا لي. سعة عينيه لا تدل على بعد النظر ولا التركيز فيما يرى فقط، بل على أن روحه في أذنيه، أيضاً، في إيقاعات النشيد العاري، وفي ذكاء قلب من وادي عبقر، كان شارداً، منوماً هو الآخر بمشهد النساء، ونشيدهن.

وسألني كمن يتكلم مع نفسه:
«يا قرشي الحسبْ: من أشعر العرب؟»
«أمرؤ القيس ولافظ»، أجبت بخوف.
فغضب لأنني ذكرت اسم امرىء القيس قبل اسمه، وأخذ يغني:
«امرؤ القيس نايٌ في يدي، وعليه أعزفُ ما بي»
كيف يعرفُ ما بهْ.
ثم يجهلُ ما بيْ؟»

ثم قال كلاماً غريباً. ولن أنسى هذه اللحظة التي قال فيها ما قال.

كان الأفق دائرة مطرزة الحواف بالنجوم، نجوم تلامس رؤوس الجبال المحيطة بالوادي الذي تقع فيه مكة، جبال جرداء تسبح في صمت قمري، وتحجب نظري عما وراءها في المكان، وعما قبلها في الزمن. بيوت من حجارة بركانية سوداء، حادة الحضور، وشعرت بأنه لا توجد سماء أقرب إلى

الأرض، من سماء مكة فوق الجبل، ونظرت إلى الكعبة، حولها كانت فضاءات مفتوحة، مساحات للتأمل، والعزلة، صافية، وكانت السماء قريبة، مثل صلاة، ووقع خطى العرايا يشبه موسيقى نجوم ترن في الصمت الإلهي، مما شدد من شعوري بفوضى، وعدم ترتيب ما في قلبي. كان الحجر الأسود في ركن الكعبة يلمع، من ضوء القمر، كمرآة داكنة بحجم رأس إنسان، وخشعت أمام السواد، «فالصمت في حرم الجمال جمال»، وسبح ذهني في عالم آخر.

فجأة قال لافظ بن لاحظ، مؤشراً إلى ما يراه:

«هذه الساحة مرآة».

ثم نظر نحو السماء الداكنة، فوقنا، حيث تتلألأ نجوم كثيرة، خافتة وساطعة، وتبدو مثل كتابة سرية، وأكمل:

«هناك، تدور النجوم دائرياً، وتسبح في أفلاكها، وهنا، تحت، عرايا يقلدن حركات هذه النجوم، فالأرض مرآة السماء، والحروف، في كل بيت شعر، نساء عرايا، ويدرن حول كعبة شعرية سرية، كما تدور هؤلاء العرايا بكعبة مكة!».

قلت:

«ما معنى أن الأحرف نساء عرايا؟»

قال:

«إن كان امرؤ القيس من أوحى إلى نفسه بمعلقته، سله عن معنى هذا؟ وإن عجز عن الجواب، قل له: عندما يسأل كبير الجن، قف جانباً يا كبير الشعر، وتعلم الإصغاء!».

وابتعد على ظهر ظليمه مغنياً، بسخرية روح جن كريم أنكر الإنس مكرمته:

وأنا عند امرىء القيس نايّ وعليّ يعزف ما بهْ

كيف يعرف ما بيْ،

ثم يجهل ما بهْ؟

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، يا صاحبي، ليلتها كل طريقة رؤياي للأشياء بدت مختلة، وظلت من تلك الليلة مختلة. لا تفكر في أسئلة الجن، فشعر العرب مدينة كالقسطنطينية، مبنية في مقابل بلاد العميان. لا تر ولا تفكر، كي تكون كبقية قومك!» وقهقه حتى نزلت دموعه على لحيته، فمسحها، وهو يحدق في حيرتي مما يقول.

|

مؤسس علم العروض، الخليل بن أحمد الفراهيدي، قال: إن بحور شعر العرب «دائرية»، وتتوزع على خمس «دوائر فلكية». بكلمات أبسط، كل بيت شعر عربي يرسم دائرة، وهذا تقليد لمسارات النجوم الدائرية. صحيح أن الخليل كان يتكلم عن «أوزان الشعر»، أو «بحوره» فقط، ولكن شاعراً ألمانياً عظيماً، هو غوتة، أدرك أن الشعر العربي «دائري»، كله، وليس فقط وزنه. فقال مادحاً إياه، أو، بالأحرى، «دورانه»:

«لا نهاية لك: هذا هو سر عظمتك
لا بداية لك: هذا هو تميزك
أغنيتك دوّارة كقبة السماء،
ونهايتك وبدايتك متشابهتان
وسطك يقود إلى نهايتك، ونهايتك هي نفسها بدايتك.
أنت: متكامل»؟ (٥)

مجمل القول أن ثلاثة أشكال، على الأقل، كانت مقدسة عند العرب في ذلك الزمن الوثني: دائرة، في جوف الدائرة مربع، في جوف المربع مثلث، وهندسة المقدس هذه «نواة» الشعر العربي.

|

قعدنا ذات ليلة كي نستريح، من تعب الطريق، وأشعلنا ناراً. كل جماعة في القافلة أشعلت نارها، فبدت الصحراء من حولنا وكأنها احتفال لعبدة النار، وكان معنا بعض العرب ممن يقدسون النار. هذا يطبخ، وذاك يسكر، وهؤلاء يتسامرون، والجمال ترغي. كنت مع القرشيّ نفسه، حول نار بعيدة عن بقية القوم، حين اقتربت منا امرأة يحجب وجهها خمار أسود، وتحمل طفلاً، بدا شبه زهرة بيضاء في هذا العراء.

قعدتْ قريباً من النار، على الرمل، ولم تلفظ لفظة واحدة. استنسبها القرشيّ فاسترابت، ثم قالت:

«من قبيلة دوس».

قهقه القرشي مكرراً:

«من دوس! آ! دوس!»

فقد كانت نساء دوس مشهورات بضخامة إلياتهن، وجمال أفخاذهن، وهن يطفن بكعبة ذي الخلصة، نظرت المرأة إليه، فلم ير إلا عينيها. وانتبه فجأة إلى لهجتها. لم تكن تشبه أية لهجة يعرفها، فلا هي قرشية ولا ثقيفية ولا دوسية ولا.. وبدت له بأنها امرأة غريبة فعلاً، ليست حتى من الأرض، وكأنها ولدت من تعويذة، وليس من رحم أم، مثلها مثل بقية البشر. وشعر بدوار خفيف، لا لشيء إلا لهذا السواد العميق الذي لا يسبر له غور في عينيها، فقال:

«بأبي وأمي، لست دوسية! هل أنت كاهنة؟»

كانت عيناها مكحلتين بنثار الأثمد الأسود – حجر أسود يدق وتكتحل نساء العرب بنثاره – وكان الطفل ملفوفاً بثوب يمانيّ الطراز، ويحرك فمه يمنة ويسرة، كمن يبحث عن حلمة أمه الضائعة من فمه، ثم حدق في القرشيّ بصمت، وثبات، وكأنه استغرب وجوده، وتمتم شيئاً لا معنى له.

«ماذا يقول؟» سألها القرشي.

«مقه، مقه!»، أجابته.

ومقه اسم إله القمر القديم في اليمن، وقيل من تكرار اسم «مقه، مقه»، جاء اسم مكة.

وتابعت:

«أقصد مكة به، سوف أسأل الرب هبل في كعبة مكة عن نسبه، وماذا أفعل به. عثرت عليه في هذا الخلاء، ملقى في طريق القافلة، وكأنه طفل جن!».

وصلنا مكة في الليلة التالية، وكان القمر صافياً، وكان الوقت متأخراً، ومشيت مع تلك المرأة إلى الكعبة، بصمت، لم أطلب إذنا، ولم تحتج. مررنا بين بيوت فيها سكارى يضحكون، وبعض المغنيات كن يعزفن على العود، ويضحكن معهم، وعبرنا السوق نحو المعبد، كاهن كان واقفا على درجات الكعبة الأربع، يتأمل النجوم، والأفق، والجبال. وصدى غناء يأتي من بعيد، وقفت المرأة تتأمل هيئة الكاهن، وكأنها خائفة منه، لأمر ما.

كانت لحيته طويلة، مصبوغة بالحناء، لأن البق والحشرات تفر من رائحة الحناء، ولأن لصبغته لونا هلالياً، ويبدو أنه يفضلها على صبغة الزعفران الصفراء. وعيناه صغيرتان، بأهداب كثة، وكان منحني الظهر قليلاً، وله ضفيرتان مجدلتان تتدليان حول وجهه، من ذكريات طفولته، ربما. كان شعر الأطفال يجدل ضفائر عدة، أيامها، ويزين بالحلي، أحيانا. وعند البلوغ يقصونه كله، باستثناء ضفيرتين، ويلقون بالباقي أمام الآلهة، في كعبة مكة. من يومها، ربما، والكاهن يحمل هاتين الضفيرتين كأنهما اسمه، شفتاه رقيقتان، وتشيران إلى خبث موروث فيه، رمت الكاهنة الطفل بين يديه، وقالت:

«خذ طفلا ولدته نساء يحبلن بأحجار، أو من نسل الجن، خذ هذا. وانظر في أمر نسبه».

أخذ الكاهن الطفل ودخل. ظلت هي عند الباب، وأما أنا فتبعته، في الداخل كان فتيل مضاء تتوالد منه ظلال ترتجف فوق جدران المعبد، بقرب صنم الرب القمري الأعظم، «هبل».

وكان هذا صنما من عقيق أحمر، لأن الهلال الأحمر، وليس القرص البدري، كان رمز إله القمر في بابل. وكانت يد هبل اليمنى قد كسرت، فركبت له قريش يدا من الذهب الخالص. أمامه، في هذا الجو الشبحي، كانت سبعة «قداح» (أسهم بلا نصل ولا ريش)، ودخان بخور يصعد من مبخرة. أسدل الكاهن خماراً أسود على وجهه. وأنشد بخشوع ترتيلة تشير إلى قدسية المثلث - رقم ثلاثة - :

«إنا اختلفنا فهبْ السّراحا

ثلاثة يا هبل فصاحا»

وكان الرب القمري - الذي تحدق عيناه في السقف، تحت الضوء الخافت، ولا يبدو بأنه يرى الكاهن أبداً - يقول رأيه بطريقتين: إما بشفتيه، وإما أن يأمر القداح بقوله. وتنتهي الترتيلة بهذا:

«إن لم تقله فمرْ القداحا»

سحب الكاهن ثلاث مرات من الأسهم السبعة، ثم قال:

«هذا رضيعك من بني هلال».

ولم يدر من أين جاءته فكرة هذا النسب للطفل، ولا كيف، وكل ما شعر به هو أن الرب فتح

شفتيه وبدا وكأنه أوحى إليه، والتفت إلى الباب فلم ير المرأة التي جلبته، حدق الكاهن في الباب، فرأى بقعة من ضوء القمر تسقط عبره على أرض المعبد، ولم ير أحداً، فحدق في وجه الطفل الذي كان يدير بصره في التزيينات الوثنية والنباتية على الجدران، وفي ظلال أعمدة من خشب، على النمط الرومانيّ، وقال حائراً:

«من بني هلال؟ أبوك الأسمى هو الرب نفسه، الهلال؟ وشرد ذهنه في أمر ما، ثم نظر إليّ، كمن استغرب وجودي عنده. قلت له:

«أنا تاجر من اليمن، ولا بيت لي في مكة، أيمكنني النوم هنا ليلتين أو ثلاثا؟». قال:

«بأبي وأمي، نم في بيتي! ففضل اليمن علينا كبير».

وبدا لي أنه يقصد أن مؤسس الوثنية في مكة، عمرو بن لحي، كان كاهناً يمانياً، جاء إلى مكة بعد خراب سد مأرب الشهير، وخراب تجارة البحر الأحمر على يد الرومان، وأسس ديانة كاملة ونمط حياة لمريديه، وصار رباً لهم، كما قيل، وهذا فضل لا يليق بالكهنة نسيانه. سألته:

«وماذا ستفعل بالطفل؟» قال:

«سنّ عمرو بن لحي لنا طرقاً وثنية في الحياة، تنظم أمورنا، وتنطبق حتى على الإبل، على أربعة أنواع من الإبل؟(٦). ومن سننه أن كل ناقة تلد ١٢ أنثى متتابعة ليس بينها ذكر تنذر للآلهة وتدعى «سائبة»: فلا نركبها ولا نجزّ وبرها، ولا نأكل لحمها، ولا نمنعها من ماء أو مرعى، ولا نحمّلها حملاً، وتبقى سائبة حتى تموت.

وهذا الطفل كالناقة السائبة: إما أن أتركه في الحياة وشأنه، في حرم الآلهة، أو أن أبعثه إلى قوم من الموحدين، يهود، أو مسيحيين، أو حنفيين، فيفعلون به ما يشاءون، أو أتركه طيلة الليل عند أقدام الرب هبل، بين السهام السبعة، والرب يتولى أمره..».

وأطرق طويلاً أمام الرب، ثم أقفل باب الكعبة، وحمل الطفل، وخرجنا، لم يكن يفكر إلا في «الدهر» الذي جلب إليه طفلاً بهذه الغرابة. بعينين كالحجر الأسود، ونسب الكاهن ذلك إلى قوة المربعات المقدسة.

أيامها لم يكن فقط شكل الكعبة مربعاً، بل كان كل تخطيط مدينة مكة قائما على المربع(٧)، وقيل: إن أول من قسم مكة أرباعا كان قصي بن كلاب، جد قريش، قبل زمن سحيق. وبالنسبة للكاهن لا يمكن أن يحدث شيء دون المربع. وكان يرى المربع في كل مكان. من الخط الذي كان به الرهبان يكتبون أناجيلهم، الخط الآرامي المربع المعروف بـ «السطرنجيلي» في القرن السادس للميلاد، حتى مربعات مكة.

مشينا تحت القمر، نحو بيته، في جنوب مكة. في الطريق، كان عليه الاستدارة نحو اليمين، في الشارع الخالي، حاملاً الطفل بين يديه. فاتجه يميناً، بسعادة غامرة، لأن الاتجاه يساراً فأل شر. بدا وكأن الآلهة نفسها وجهت قدميه إلى هذه الجهة، فنظر إلى الكعبة بخشوع، فأطلت عليه ٣٦٠ صنماً، بعدد أيام سنة قمرية بابلية، ولكل صنم بسمة مختلفة، قناع مختلف، قوة خفية مختلفة، بعضها كان في داخل الكعبة غير مرئي إلا لعين القلب، وبعض كان حولها. وكانت ريح تنعف

شعر لحيته، فشعر بخوف ما. كانت بينه وبين الكعبة علاقة تشبه الحبل السري الذي يربط وليداً بأمه الأرض، والابتعاد عنها بدا مثل فقدان توازن، وقف محتاراً، أمامه كان بناء مجاور من الطين مسقوف بالخشب، وعلى زاويته يقف غراب أسحم (أسود) سرعان ما طار إلى اليسار، فأثار ذلك، فينا جميعاً، إحساسا بشؤم ما.

حدق الكاهن في وجه الطفل، فبدا له مربع الشكل، بفكين فيهما قسوة، وبجبين واسع، وشعر خفيف أسمر. وجهه مثل مربعات مكة، فكر الكاهن. أبوه مرة قال له، وكان طفلاً، بأن جد قريش، قصي بن كلاب، كان أول من جعل مكة أرباعاً، وكيف كان وجه قصي بن كلاب؟ من يدري، ربما كان مربعاً، سألته عن قدسية المربع. قال:

«في اليمن كانت القلاع تبنى بحجارة ضخمة، تلصق معا بحديد مصهور، على هيئة مربعات، وفوق رمال الصحراء، أقام سادة اليمن وحضرموت قلاعاً شاهقة، مربعة الشكل، وفي القرن الرابع بعد ميلاد المسيح، انتقل فن بناء القلاع المربعة من اليمن إلى الشمال. المربع في كل مكان، معبد اللات (الشمس) في الطائف صخرة مربعة بيضاء، وكعبة ذي الخلصة مربعة، وكعبة مكة. والبتراء؟ هل تعرف البتراء؟ هناك معبد فيه صنم الرب «ذو الشرى»، وهو حجر مربع أسود، له قاعدة من ذهب، ويصبون عليه دم قرابينهم، تخيل وقت صب الدم على رأس الرب: أحمر يسيل على أسود ثم على الذهبيّ. وفي البتراء حجارة غريبة، منحوتة من الصخر، على هيئة مكعبات ضخمة، ولا أحد يدري ما سر هذه الحجارة، والسر في المربع، وهل سمعت عن قصر غمدان؟».

«لا! لماذا تذكره؟».

«قيل إنه أحد ثلاثة قصور بنتها الجن للملك سليمان فأهداها لبلقيس، ملكة اليمن، كان قصراً حجرياً مربعاً، جداره الأول أخضر، والثاني أحمر، والثالث أبيض، والرابع أسود، وفي كل ركن من أركانه الأربعة أسد أجوف من نحاس، ويزأر كلما هبت الريح على ركنه.

عندما تدخله تشعر بسحر، فتصعد عدة طبقات، في آخره غرفة بأربعة أبواب، كل باب يفتح على جهة من الجهات الأربع، واحد على الشمال، وواحد على الجنوب، وواحد على الشرق، وواحد على الغرب. ومن ينظر من هذه الأبواب يرى، ليلاً، دائرة الأفق تتلألأ بالنجوم، وفي الغرفة ستائر عليها أجراس معلقة، وكلما هبت الريح، رنت الأجراس، مصدرة أنغاماً ساحرة ترحل في الأفق، وتندغم مع موسيقى النجوم، وفي السقف فتحة ترى منها «دائرة الأبراج»، أي حركات النجوم الدائرية في أهم قطعة من السماء عند البابليين، هذه الدائرة التي سموّها «زنار السيدة عشتار»، وحركات النجوم في «الزنار» سموها «كتابة السماء». فترى السماء تكتب، أو «تنسج» زنار ربة القمر، وأنت نائم في هذه الغرفة، على سرير من ذهب، هل تعرف معنى لقصر رغدان؟» (٨).

قلت:

«قدسية المربع، وصلة الجن به». قال:

«ليس هذا فقط، إنه تقليد لمعمار الكون، فيه أربعة أبواب تطل على جهات الكون الأربع، وسقفه يطل على السماء، السماء التي سماها الفراعنة «سقفاً». وكل جدار في القصر يقابل

جداراً من جدران الكون، ألوان الجدران ألوان كواكب، كبرج بابل، وهو برج مربع، من سبع طبقات، كل طبقة مطلية بلون أحد ألوان الكواكب السيارة السبعة، وهذا تقليد بابلي، ومنذ زمن قديم يعتقدون بأن النجوم، وهي تدور في مداراتها، تصدر موسيقى، ورنين الأجراس تقليد لموسيقى النجوم هذه. قيل: إن القصر من بعيد كان يلمع كالبرق، وكأنه لؤلؤة من برق».

- «والخورنق».

«قصر الخورنق؟ نعم، نعم. أحد أربعة قصور شهيرة عند العرب، تحفة فنية. أجمل حتى من قصر «السدير». قيل: إن الملك النعمان بن ماء السماء دعى مهندساً رومياً يدعى «سنمّار»، ليبني له معجزة، فبنى سنمار الخورنق: قصراً مربعاً، كل توازنه يعتمد على «آجرّة» واحدة (قطعة من الطين المشويّ). إن أزحتها من مكانها انهار القصر كله. ولما بلغ الملك أمر هذا الحجر السري، سأل سنماراً: أيعرف سر هذا الحجر أحد سواك؟ قال: لا. فأمر الملك بحذف سنمّار عن ظاهر القصر. قتله لكيلا يعرف أحد أين هي الآجرة! فقيل: «جزاء سنمّار»، وذهبت مثلا.

شعر العرب قصر خورنق آخر: دوائر ومربعات ومثلثات، ربما، ولكن كل توازنه يعتمد على حجر واحد، كحجر سنمّار، هذا الحجر هو الذي يجب أن تبحث عنه. أما المربع فسهل. خذ الأهرامات، قاعدة الهرم مربعة، وعندما توصل قطريها ينقسم المربع إلى أربعة مثلثات. هكذا جاء المثلث من المربع، جدران الهرم هي هذه المثلثات. وقمة الهرم، إن نظر إليها نسر من عل، تقع فوق مركز المربع تماماً، أترى؟ يبدأ الفراعنة بمربع ويشتقون منه مثلثاً، كما في طقوس «حجر دوار» عندنا، الحجر الذي يذكره امرؤ القيس في معلقته، هل سمعت به؟» (٩)

«نعم، نعم. لكن دعني أغير غدير الكلام نحو أرض اخرى: هل شعراء العرب يقلدون الدورة القمرية في شعرهم، الدائرة والمربع والمثلث، وغير هذا، من الأشكال المقدسة في التقويم القمري؟».

إرو عني، أيها التاجر اليماني، ما سأقول: ليس لنا، نحن الوثنيين، كتاب مقدس يفكك لنا أسرار الألوهة، لا كتاب كتوراة موسى، ولا قديساً واحداً كقديسي الإنجيل، والأفلاك كتابنا الأسمى، نقدس النجوم، وملوكنا تشبهوا بها، أي بالآلهة، والقمر إله، هل سمعت بالملك «مزيقيا»، بن عامر بن ماء المزن؟».

«لا»

«قيل: سموه مزيقيا، لأنه كان يلبس، كل يوم، بدلة، ويمزقها، وفي كل سنة، كان يمزق ثلاثمائة وستين بدلة. هكذا قيل، لكن إرو عني ما هو حق: «مزيقيا» جاءت من كلمة يونانية، هي «ميوز» – اسم يطلق على كل ربة من ربات القمر، إي الـ«ميوزات». ربات الإلهام اليونانيات، وكن تسع أخوات، ومن اسمهن جاءت «مزيكا» و«موسيقى»، العربيتان، وكان الملك يتشبه بالقمر، فيبدل بدلة، في كل يوم من أيام السنة القمرية البابلية، المكونة من ثلاثمائة وستين يوماً».

«لم أفهم. أوليس غريباً أنه ذكر، ويتشبه بربات القمر اليونانيات، أي بإناث؟»

«نعم، نعم، هذا غريب، ربما أنه يتشبه بعشتار، خذ، مثلاً، عادة الملوك في التحجب، أي وضع حجاب وراء حجاب وراء.. سبعة حجب بين الملك والرعية. يبدو لي أن هذا تشبه بطور القمر في المحاق، أي بـ «القمر المظلم»، حين كانت عشتار تعبر بوابات الظلمات السبع. ويبدو أن سيدات بابل، حين كن يلبسن الخمار على وجوههن، كن يقلدن «القمر المظلم» هذا، أو خذ إمرأ القيس نفسه:

حين قرر الثأر لأبيه، وجاءه وفد من بني أسد، احتجب عن الوفد ثلاثة أيام. لماذا؟ لأن عشتار، حين تغيب في ظلمة «المحاق»، تتحول إلى جثة هامدة مشدودة إلى وتد في العالم السفليّ «ثلاثة أيام بلياليها»، أي تحتجب ثلاثة أيام، قبل أن تبزغ كهلال جديد. وهذه الأيام الثلاثة قدستها العرب وسمتها الليالي «الدهم» (السوداء). امرؤ القيس احتجب مثل عشتار، ثلاثة أيام بلياليها، ثم خرج إلى الوفد معتمراً «عمامة سوداء»، أي كان يتشبه بـ «القمر المظلم». ولا تعتمر العرب بعمامة سوداء إلا إن كان هناك دم، وثأر.»

«والشعراء؟ هل قلدوا دورة القمر؟»

«زهير بن أبي سلمى، أحد كبار شعراء المعلقات، قال: إنه حاك سبع قصائد في سبع سنين، أي أن كل قصيدة استغرقت عاماً قمرياً عربياً واحداً، أي «حولاً». هذا تقليد خارجي للدورة القمرية، ولكنه تقليد لها، رغم ذا. تقليد خارجي، ولكنه تقليد. انتبه إلى رقم سبعة في قوله هذا، سأحدثك عنه. ولكن خذ نرسي. نرسي، هل سمعت بالراهب النسطوري نرسي؟»

«لا. متى عاش؟»

«لا أدري متى عاش، لكن أعرف متى مات، قيل في سنة ٥٠٢ بعد ميلاد المسيح. امرؤ القيس مات بعده بثلاث وثلاثين سنة، كما أرى!. نرسي كان كاهناً يدعى بـ «لسان الشرق»، انتبه إلى لقبه! حكيم الشرق، كله. قيل: إنه كتب ثلاثمائة وستين قصيدة، بعدد أيام السنة القمرية البابلية، ورتبها في إثني عشر جزءاً، بعدد الأشهر القمرية، أو بعدد الأبراج في «دائرة الأبراج»، واستعمل في أوزانها وزن أربعة، واثني عشر، وغيره، من الأرقام المقدسة في الدورة القمرية. تخيل كل قصائده مرتبة على محيط دائرة، كل قصيدة تساوي درجة واحدة عليه. والكل دائري.»(١٠)

«جميل. جميل. ولكن ماذا عن العرب؟»

«العرب؟ قيل: إن أول شاعر رويت له قصيدة من ثلاثين بيتاً، أي بعدد أيام شهر قمري بابلي، ليس إلا الزير أبو ليلى المهلهل، خال امرئ القيس. والمهلهل، خال امرئ القيس، شخصية طريفة. قيل: أنه لقب بـ «المهلهل»، لأنه «هلهل» الشعر، أي أضعفه، وقيل لا، بل نسبة إلى «تهليل» الشعر، أي غنائه.

لكن إرو عني ما هو حق: تحتفل العرب ببزوغ الهلال، وتنشد له الأناشيد الدينية، والمهلهل لقب جاء من هتاف الناس في الاحتفالات ببزوغ الهلال «هلَ، هلَ». هذا هو: التهليل أو الغناء

للرب نفسه. وهذه أيضاً عادة بابلية قديمة، وهي الاحتفالات بـ «النور الجديد».

ويبدو أن الشاعر عبيداً بن الأبرص، كان ضحية لتشبه الملوك بالقمر، التشبه الذي حدثتك عنه. قيل: إن ملكاً ما، نسيت اسمه الآن، اسمه، اسمه، نعم، اسمه المنذر بن ماء السماء (٥١٤ – ٥٥٤م)، وكان ألد أعداء امرئ القيس، قسم دهره إلى يومين: يوم نعيم، ويوم بؤس. يقتل من يلتقي به في يوم بؤسه، وينعم على من يلتقي به في يوم نعيمه بمائة من الإبل. أو لا ترى إن هذا تشبهاً بعشتار السوداء، أي «القمر المظلم» (يوم البؤس)، وعشتار البيضاء (يوم النعيم)؟ وفي ذات يوم التقى عبيداً في يوم بؤسه، فقتله! ليس هذا غريباً عنه. كان المنذر يقدم قرابين بشرية للعزى، من أسرى الحرب.»

«ربما، ربما. لكنك من كهنة الرب هبل، وهو رب ذكريّ، ما الذي يجعلك تعترف بعشتار كربة للقمر؟» «أنا؟ ليس أنا من يعترف أو ينكر! عشتار لها هيئات لا حصر لها، ومن هيئاتها العزى. هل تعرف ثالوث اللات، و«ود»، والعزى؟ هذا ثالوث جاء من اليمن إلى الشمال، وتعبده عرب هذه النواحي. والعزى، أي كوكب الصبح، أو عستروت، سمها ما شئت، هي ابنة زواج اللات مع ود (الشمس مع القمر). إنه عائلة مقدسة، كالأب والإبن والروح القدس في المسيحية. وعبادة عشتار، إن فكرت في الأمر جيداً، لم تزل في الكعبة.»

«كعبة مكة؟»

«نعم، كعبة مكة. فيها بئر تدعى بئر الكعبة، فيها يلقي المؤمنون بالهدايا للآلهة: دنانير بيزنطية، ودراهم فارسية، وحلياً، وهكذا، فليس للعرب عملة خاصة بها. قيل: في هذه البئر تسكن أفعى الكعبة. أحياناً تخرج وتفحّ، وتتسلق الجدران، وترعب الكل، حتى يأتي طائر فيخطفها. لم أرها، لكن حدثني عنها كهنة آخرون. والأفعى أحد رموز عشتار. لماذا تفحّ، وتخرج من بئرها غاضبة؟ يبدو لي أن عشتار غاضبة على عبادتنا للرب هبل. الصراع بين الآلهة الأم، وبين الديانة الذكورية، لم يزل قائماً. ولست من يقول القول الفصل في شؤون الآلهة. أفعى، وحمامة، وثور، هذه هي حيوانات عشتار. الأفعى في بئر الكعبة، وحمام مكة صيده لم يزل محرماً بيننا حتى الآن، أيها اليماني، فهو مقدس للربة القمرية.»

وبدون أن أدري كنا وصلنا بيته. دخلنا باباً، إلى ساحة بيت رحبة، فرأيت امرأة هناك قاعدة، على كتفيها وشاح له رائحة المسك. عيناها واسعتان. وشفتاها أميل إلى السمرة المخلوطة بحمرة، وغليظتان بجمال في التكوين يوحي بأنوثة لا بغلظ، وقد زينت قدميها بالحناء، وقصت شعرها، وحلقت حاجبيها، وطيبت نفسها بأنواعها من الطيب. قيل: إن المسافر إلى مكة كان بإمكانه أن يصلها متتبعاً بأنفه رائحة الطيب. سلمها الكاهن الطفل، وقال:

«هذا من بني هلال. بعثته الآلهة. ولا أدري لماذا. سنتبناه، هذا خير هدية لخير بيت.»

وصعدنا معاً درجاً يقود إلى غرفة علوية. قال:

«على الرحب والسعة، أقم بيننا أيها المسافر اليماني.»

«لم نتعارف!»

«أنا عبد مناة، من كهنة النسيء. هل تعرف من هي مناة؟ ربة المنايا. واحدة من ثالوث «اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى». لها معبد على شاطئ البحر: صخرة عظيمة سوداء. انتبه إلى اللون، سأحدثك عنه في ليل آخر. هذا لون من ألوان هذا الثالوث الأنثوي. أنا عبد مناة، كما أن امرئ القيس هو امرؤ قيس، أي رجل الرب أو الصنم قيس. وأنت؟ عبد من؟»

ضحكت وقلت:

«لست عبداً لأحد. واسمي يتغير كطرقي. فلنقل إنني تاجر من اليمن.»

أطرق عبد مناة، وتأملت هيئته بصمت. رفع رأسه فجأة، وقال:

«عم ظلاماً، يا تاجر اليمن.»

«أحب أسأل، قبل أن تنزل.»

«نعم»

«من هم كهنة النسيء هؤلاء؟»

«كهنة يوفقون بين التقويم القمري والشمسي، ويعينون بداية السنة، والأشهر الحرم، ومواسم الحج، وأوقات الأعياد، وهكذا، وهكذا. أترى؟ عم ظلاماً، أيها اليمانيّ.»(١١)

وأغلق الباب العلوي عليّ بلطف، وسمعت خطاه نازلة على الدرج.

|

كان من المذهل تماماً، بالنسبة لي، حين اكتشفت بأن المربع، والمثلث، والدائرة، والصليب، والصليب المعقوف، وغيرها من أشكال الهندسة المقدسة، كانت معروفة منذ زمن سحيق جداً في هذه المنطقة، في ثقافة حسونة، مثلاً، وسامراء، في العراق، وفي مواقع أخرى، منذ أكثر من خمسة أو حتى ستة آلاف سنة قبل الميلاد.

توجد وثائق أثرية مصورة لهذه الأشكال، ولا تترك مكاناً للشك، فهي ليست «تحليلاً» بل «وقائع». ويورد خزعل الماجدي رسوماتها في كتاب «أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ» (دار الشروق، ١٩٩٧). من جملة الرسومات رسوم يظهر فيها أن المثلث مشتق من المربع منذ تلك الأزمنة. والعرب قبل الإسلام، في الجاهلية، ورثت الكثير من هذا الإرث، والمستمر عندنا حتى الآن. بكلمات أخرى، نحن نتكلم عن هندسة ذاكرة عمرها أكثر من ثمانية آلاف سنة.

قام فراس السواح، في «لغز عشتار»، بتحليل واسع وجيد لعلاقة كل هذا الإرث بعبادة القمر. وما يهمني من كل هذا «ألوان» عشتار، كي نفهم الذهنية الجاهلية بشكل أكمل.

فالهلال (الأحمر، والأصفر)، والبدر (الأبيض)، والمحاق (الأسود، القمر المظلم) ألوانها الأساسية. الأسود، أو «عشتار السوداء»، دليل شر، ولكنه شر إلهي، فهذا، مثلاً، هو لون الربة «مناة». ومما يشير إلى هذا، في الأساطير، أنه كان لعشتار توأمان، أحدهما أسود، والثاني أبيض. ويبدو أن ظاهرة التشابه الكامل بين أخوين توأمين كانت لغزاً في الثقافات القديمة. للتوأم، مثلاً، قدرة على استنزال المطر.

ويبدو أن الأخضر من ألوان عشتار، أيضاً. فعند الفراعنة كان رمز نجمة الصبح صقراً أخضر له

أربعة وجوه، ترمز لأبناء «حورس» الأربعة (وحورس هو ابن الربة القمرية الشهيرة، إيزيس). في الطقوس الجنائزية المصرية، كانت تدفن مع الميت في تابوته أربعة تماثيل من الخزف أو الشمع، لأبناء حورس الأربعة، أحدها برأس إنسان، ويرمز إلى الجنوب، والثاني برأس ذئب، ويرمز إلى الشمال، والثالث برأس ضبع، ويرمز إلى الشرق، والرابع برأس صقر، ويرمز إلى الغرب. (١٢) ولعل هذا يلقي بعض ضوء على لماذا كان لون أحد جدران قصر غمدان «أخضر».

|

كنت في بيت عبد مناة، كما قلت، ونمت من تعب السفر. وفي الليلة التالية أيقظني، وكان القمر يطل من شباك الغرفة العلوية، وصب لي لبن نوق، ودعاني إلى الكعبة. في الطريق رأيت ناقة مربوطة في ساحة بيت، أمام حوض ماء من الجلد، ورأيت شباكاً مضيئاً منه يصدر غناء جارية ما، ذات لكنة فارسية، مع عزف على العود، يقطعه صياح سكارى، يتجادلون مع خمسة لصوص كانوا سرقوا غزاليّ الكعبة الذهبيين.

قلت له:

«قلت إنك سوف تحدثني عن لون الربة مناة: الأسود.»

«نعم. السواد مقدس عندنا. كان للآلهة البيضاء، عشتار، توأمان، أحدهما أسود، والثاني أبيض، والحجارة السوداء والبيضاء مقدسة لعشتار، كألوان التوأم. وهذا انتقل إلينا. هل سمعت بقبيلة «عك»؟

«لا! هل هناك قبيلة باسم كهذا؟»

«نعم، نعم. في موسم الحج تسوق هذه القبيلة أمامها غلامين أسودين، ينشدان ترنيمة دينية مطلعها: «نحن غرابا عك»، أي غرابان لقبيلة عك، وتردد كل القبيلة نشيدهما: «نحن غرابا عك». هذان الغلامان توأمان، هكذا أظن. وهما غرابان لهما قدسية، وإلا لما كانا يسيران أمام «عك» في طقوس الحج. قدسية السواد ورهبته منتشرتان في روح العرب. لست أدري من اعتدى على معبد العزى، مرة، فخرجت إليه على هيئة امرأة سوداء منفوشة الشعر وهي تصرخ، وخلفها كاهنها يرتجز، أي ينشد أغنية حرب على وزن الرجز.»

«وماذا عن مناة؟»

«مناة سوداء. فمعبدها صخرة سوداء على شاطئ البحر. لماذا على شاطئ البحر؟ لا أدري. ولكن القمر يتحكم بحركات المد والجزر البحرية، ولذا ارتبطت الربة القمرية بزرقة البحر. ومن الغريب أن العرب تسمي «قرارة الرحم» بحراً، أيضاً. ربما لأن للعادة الشهرية إيقاعاً قمرياً، نشأ شعور بأن القمر يتحكم بالجزر والمد في «بحر الرحم»، إن جاز لي القول.

ورهبة السواد منتشرة بين العرافات. من أشهرهن «سوداء بنت زهرة». تأمل اسمها فقط: «سوداء»، و«بنت زهرة». وزهرة اسم العزى. عرافة أخرى أشهر من سوداء هي زرقاء اليمامة، زرقاء بنت زهير. لماذا قلعوا عينيها فوجدوا عروقهما محشوة بـ «الأثمد الأسود»، وهو حجر يدق وتكتحل نساء العرب، وحتى رجالاتها، بنثاره؟ لأنها عرافة قمرية، وحشو عروق عينيها بنثار

الأثمد نوع من أنواع الصلاة للربة القمرية أن تمنحها بعد الرؤية والرؤيا. هذا قد يكون أصل عادة تكحيل العيون. ولماذا أذهب بك بعيداً؟ هذا هو الحجر الأسود في ركن الكعبة.»

«لنرجع إلى قدسية ذوي الجلدة السوداء. ماذا عن عنترة بن شداد؟ الشاعر الأسود؟»

«عنترة؟ أسطورة، قدره أن يكون أسطورة. ولكن تخيل عبداً أسود عيروه بأنه «لا يتقن إلا الحلب والصرّ»، ولا يستطيع قول الشعر، بل رعي الإبل في ثقافة بيضاء تحتقر العبيد، يتحول إلى أسطورة، وإلى أحد شعراء المعلقات، وتعلق معلقته على ستائر كعبة مكة، كما سمعت. عبد يتحول إلى أسطورة لها طعم الغيب في ثقافة بيضاء. ما السبب؟

إرو عني، أيها اليمانيّ: عنترة فارس فذ، نسيج وحده. وما الفروسية؟ ذبح الخصوم، إن فكرت في الأمر. ومن أسماء العزى «عتر»، أي «ذبح». فهي مثل عنترة، مولعة بالدم والقرابين. وكان يعشق ابنة عمه، عبلة، ويقدم «فروسيته» إليها، وما الحب؟ جنس خفيّ. ومن معاني «عتر» العضو الأنثوي، والذكريّ، فهي رمز اللذة، والسكر، والحب، والحسن، والعنف، أيضاً. ولكن عنترة أكثر من هذا، فأمه حبشية سوداء، وأبوه أبيض، أي يجمع في أصله بين رهبة اللونين القمريين: الأبيض والأسود. ربما أن هذا لا يكفي لتفسير أسطورته، ربما، ربما، ليس سهلاً أن تفسر هذه الأرض الغريبة.»

«وماذا عن أغربة العرب؟ ثلة الشعراء السود هؤلاء، ما سر تسميتهم بهذا الاسم؟»

«الغراب مقدس، ولهذا تهتف قبيلة عك: «نحن غرابا عك». وله صلة بغرب إفريقيا، وبجهة الغرب، والغروب، أي الموت، والقمر المظلم. بعض من أغربة العرب هؤلاء من أصول حبشية؛ أمهاتهم حبشيات.»

«دعني أغير غدير الكلام إلى جهة أخرى: كيف قلد شعراء المعلقات، امرؤ القيس مثلاً، الربة القمرية؟»

«كل شيء يبدأ من رقم سبعة، عندنا. العرب مذهولة برقم سبعة هذا. نطوف بالكعبة سبع مرات، ويستمر الطواف أسبوعاً، والسهام أمام الرب سبعة، ونطوف بحجر دوار سبعا، وإن أرادت امرأة أن يعيش لها ولد تخطو فوق جثة زعيم قبيلة سبع خطوات، وفي لعبة الميسر سبعة أسهم عليها حزوز، وعلى السهم السابع فيها سبعة حزوز، وهكذا، وهكذا. حدثتك أيضاً عن زهير بن أبي سلمى: حاك سبع قصائد في سبع سنين. خذ امرأ القيس نفسه: قيل إن خبر مقتل أبيه جاءه وهو في «دمّون»، في أرض اليمن، وكان سكراناً، فقال: «ضيعني صغيراً، ثم حملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغدا أمر». وبعدها شرب سبعاً، سبع كؤوس، وسكر تماماً.»

«ولماذا شرب سبعةً بالذات؟»

«لا أدري. رقم مقدس من أزمنة لا يذكرها أحد بيننا، ولا حتى عمرو بن لحيّ. هل تعرف الصابئة؟»

«سمعت بهم، عبدة نجوم من حران»

«حسناً. لكل كوكب من الكواكب السيارة السبعة عندهم رمز هندسي. رمز العزى مربع في جوفه مثلث، أضف الثلاثة (عدد زوايا المثلث)، إلى الأربعة (عدد زوايا المربع) تحصل على سبعة. وعند الروم نفس الشيء: سبعة هو رقم العزى، يسمونها «فينوس»، هناك. وفي طقوس «حجر دوار» يبدأ المؤمن بمربع ثم يشتق منه مثلثاً، والمجموع سبع زوايا.»

«هل هذا لغز؟»

«نعم. لغز. خذ مثلاً عليه. لعبة الميسر. هل تعرف ما هي الميسر؟»

«معرفة مبهمة.»

«قمار، لعبة قمار. كانت العرب تلعبها، قديماً، في فصول الجفاف، كنوع من أنواع الصلوات للنجوم، كي تبعث المطر، لأن العرب تعتقد أن المطر يأتي من النجوم، صلاة دينية، ربما، من طقوس صلوات الاستسقاء. هكذا يبدو لي الأمر. في الميسر أحد عشر سهماً أو «قدحاً». لماذا أحد عشر سهماً فقط؟ لا أدري، ببساطة، لا أدري. منها أربعة سهام، أي مربع مقدس، لا حزوز عليها، ومن يسحب سهماً من هذه الأربعة لا يربح ولا يخسر. وعلى السهام السبعة الباقية حزوز. ومن يسحب سهماً منها يربح أو يخسر بعدد الحزوز على السهم الذي يسحبه. على السهم الأول حز، وعلى الثاني حزان، وعلى الثالث ثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، وعدد كل الحزوز على كل السهام السبعة ثمانية وعشرون. ما معنى هذا؟»

«لا أدري»

«وأنا لم أكن أدري.»

«والآن تدري؟»

«نعم.»

«كيف عرفت؟»

«من واقعة وقعت معي في الزمن الخالي. كنت في الكعبة وحدي، ليلاً، والمعبد مظلم. أشعلت ناراً خفيفة في إناء، تصاعد منها دخان، وبدا المعبد شبحياً، بظلال في الزوايا، وغموض في الأشياء. درت فيه برهبة، وأنا أحمل النار، وظلي يدور معي على الجدران. وبدا لي ظلي نفسه شبحاً يسخر مني. وحتى صنم الرب بدا كتلة من سواد غامض يغتسل بنور أحمر يشبه السحر.

قعدت أمام الرب، عند السهام السبعة، وكنت أفكر في سر عدد سبعة هذا (وهو عدد سهام الميسر، أيضاً)، وفي صلته برقم ٢٨ (عدد حزوز سهام الميسر).

نظرت إلى أعين الرب المرتفعة نحو السقف. قديماً لم يكن للكعبة سقف، وكان الرب يحدق في النجوم بعينيه المقلوبتين. ورأيت بياضهما، واحمرار زواياهما، وسواد حدقتيهما، وبدوت وكأنني أفقد كل وضوح سابق. وأطرقت في القداح السبعة، المرتبة في شكل ربع قوس أمامه. تناولت واحداً، وقلبته بين يديّ، وسألته:

: «باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من أنت؟». قال:

«أنا، الصريح!».

«صريح؟ أنت غمغمة من خشب».
وتناولت الثاني. وسألته، قال:
«أنا، الملصق».
«ملصق! وأنت تغوص في ظهري؟».
وتناولت الثالث. وسألته، فلم يجب. فأطرقت في محاولة لفهم سر صمته. لمست السهام جميعاً، كانت بطول واحد، وملمس واحد، وعرض واحد، وبلا ريش، ولا نصال، وممحوة الوجه من كثرة ما لمسها الكهنة. وسمعت عندها هاتفاً يهتف بي، صوت «رئيّ» من الجن. ربما، كهذا الذي رافق عمرو بن لحيّ، يأتي من إحدى الزوايا.
ارتعبت وأدرت نظري في المعبد، ولم أرَ أحداً. فنظرت إلى عيون الرب هبل، فأغمض عينيه وفتحهما ثانية، وارتجفت النار، وكادت تنطفئ. وخيّم صمت ثقيل، وطويل، وهدوء مريب، وأنا قاعد على هذه الهيئة أستجلي أمري، بعيون محدقة في الفراغ، وفم مفتوح. وعندها سمعت قهقهة، وصوتاً يقول:
«تكون الحياة واضحة، فيحوّلها الرب إلى طلسم من سبعة أقداح لا هي بالسهام الكاملة كي تستخدم في الحرب، ولا بالواضحة كي تستخدم في الفهم.»
نظرت مرتعباً إلى الباب، كي أرى من هذا الذي يدنس حرمة الحرم بفظاظة، وإذا برجل يدخل المعبد، غريب الهيئة، بصندل جلد، وقربة ماء على ظهره، أسود الشعر أجعده، قاسي الملامح، ومشمر الساقين. توجست منه ووقفت. كان يلهث، متعباً من سفر ما. فتناول القداح وجعلها حزمة واحدة في يديه، وضربني بها على كتفي الأيمن ثلاث ضربات خفيفة.
«من.. م.. من؟» وقبل أن أكمل، قال:
«كبير الشعراء». (امرؤ القيس).
كنت كمن رأى إلهاً بجلده وعظمه، أمام حضرة وسلطة الشعر، فشعرت بالضآلة، وخفت. ولم ألفظ حرفاً. سلطة الذاكرة، والروح. كانت تقف أمامي، وعلى كتفيها قربة ماء تحت ضوء شبحي.
«من م.. م..» كررت. فأجابني:
«أنا فكرة يا كاهن الكعبة هائمة في الزمن، وتبحث عن كائنات من لحم ودم كي تتجسد فيها.»
«أنا عبد مناة، وأنت شبح».
«لا، أنت شبحي يا عبد مناة! وأشباحي كثرة. من قبل ولادتك، ومن بعد موتك سأهيم وأهيمن، مع أمثالي، عليك، وعلى أمثالك. فأنا جزء من هذا الكل الذي يدعى «حقيقة الروح.» بدوني لن يعرف عربي من هو حقاً، ولن يكون عربياً حقاً.»
«أنت من نفق في الذاكرة!»
«لا يا عبد مناة. أنا وصلة بين الصحراء والمستقبل.»
صوته كان ناعماً، فيه أنوثة، حتى، وفيه صلابة بدوي، وجلال أمير. وكان يلعب بي، قلت:

«أنا كاهن، وأنت شاعر»

«وكلانا في خدمة المقدس!»

«نعم.»

«فاعلمن يا عبد مناة، أنني ميت جسداً، ولكن ذبذبات لغتي كأجراس قصر غمدان، موسيقى نجوم في فضاء الذاكرة المقمرة، ترن من قرن إلى آخر، وترحل من ساحل بحر في الليل إلى آخر، وقد مستك فصرت شبحاً لامرئ القيس. طال استحضارك لي يا كاهن الكعبة، وقلّ حضوري، والآن أتيتك وعلى ظهري قربة ماء.»

تأملت وجهه، فلحظت جمالاً لم ألحظه من قبل، وحزنا عميقاً ما، قلت:

«هل أسأل يا كبير الشعراء أم أنتظر؟»

«سلني! فمن جاد على العرب بمعلقة لا يبخل بجواب.»

«هل تستطيع جواباً، أم عليّ أن أسأل شيطانك، لافظ بن لاحظ؟»

«إسأل المنبع قبل المصب.»

«أفأنت المنبع أم هو؟»

«اسأل قداح الرب.»

«سألتها. قالت إن رقم ٧ يحتوي في داخله هو نفسه على رقم ٢٨ (أي أن مجموع واحد، زائد اثنان، زائد ثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، يساوي ٢٨، كما في قداح الميسر. وهذه طريقة حساب سحرية قديمة.)

«وما سؤالك لي إن كنت تعرف هذا؟»

«ما معنى الرقمان؟»

«سبعة عدد أيام الأسبوع، و٢٨ أربعة أسابيع. شهر قمري من ٢٨ يوماً. مربع مقدس.»

«هل قلدت هذه الدورة القمرية في معلقتك؟»

«حجارة بيتي من نجوم.»

«هل أسأل أم أصمت؟»

«سل!»

«ما الذي تقصده حين تبدأ المعلقة بذكر ثلاثة أشخاص واقفين بين أربعة أمكنة؟»

«المربع المقدس»

«هذه صدفة.»

«ذكرت في كل المعلقة أسماء أربع نساء فقط: أم الحويرث، وأم الرباب، وعنيزة، وفاطمة! مربع مقدس»

«وهذه صدفة!»

«وفيها أربع أبيات فقط مصرّعة (لصدرها وعجزها قافية واحدة)، مربع مقدس.»

«وهذه صدفة.»

«وعدد أبياتها ٩٠، ربع سنة بابلية من ٣٦٠ يوماً، مربع مقدس.»

«كلام مبهم، كالليل، كن واضحاً، كالصباح.»

«وضوح الصباح ليس بأمثل من غموض الليل. أشير فيها إلى الفصول الأربعة، والرياح الأربع. المربع المقدس.»

«كل معلقتك على المربع المقدس، أهذا ما تعنيه؟»

«أنت تقرر ما أعنيه.»

«وأنت؟»

«أنا الأصل، وما عداي شبح.»

«وأنا؟ حتى لو كنت شبحاً، للأشباح حقوق!»

«عندما تتخيل ما أقوله، وتراني، انت شبحي، وحين تفسر ما أقوله، وتغير في معناه ليصبح مرآة روحك، فأنا شبحك.»

«أتقلد دورة قمرية من ٢٨ يوماً في منازل القمر الـ ٢٨؟»

«ألم تشبع يا كاهن الكعبة من الأرقام المقدسة، بعد؟»

«لا»

«من زرع فيك حب استطلاع كهذا؟»

«نفس الآلهة التي زرعت فيك شهوة لا ترتوي للنساء.»

«عم ظلاماً يا عبد ربة المنايا.»

«من أين تعرفني؟»

«من الزمن الذي تعرفت فيه عليّ».

«ألم تزل تتهرب؟»

«أتخفى بالكلام.»

«لماذا؟»

«لنفس السبب الذي يتهرب فيه ربك القمري من الوضوح، فيتخفى بسبعة قداح من خشب.»

«يا سادن الشعر، دعني وشأني. كل ما قلته لا يقنع قريشاً بشيء.»

«لا وقت عندي لإقناع قريش، ولا غيرها، لست قرشيا.»

«أقنع كاهن الكعبة!»

«في معلقتي أربعة بيوت مصرعة فقط. مربع مقدس.»

«وهذا صدفة.»

«الأول: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.» حين يأتي البيت المصرع الثاني، «أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل»، يبلغ عدد القوافي ٢٨، بعدد المنازل القمرية. مربع مقدس، دورة قمرية.»

«وهذا صدفة.»

«ثم تبدأ دورة قمرية جديدة بالبيت المصرع الثالث:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل.

وحين يأتي البيت المصرع الرابع، والأخير، «ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي»، يبلغ عدد أبيات هذا القسم ٢٨ بيتاً. بعدد المنازل القمرية. دورة قمرية من ٢٨ يوماً.»

«وهذه صدفة.»

«في آخر المعلقة أصف سيلاً في ديار بني أسد، في إثني عشر بيتاً، بعدد الأبراج الإثني عشر في دائرة الأبراج. ودائرة الأبراج تعني ٣٦٠ درجة، أي ٢٨ منزلة قمرية.»

«وهذه صدفة.»

«وقبل هذا القسم أصِفُ حصاني في ثمانية عشر بيتاً، ومجموع الأبيات عن السيل والحصان معاً ٣٠، بعدد أيام شهر قمري بابلي».

«وهذا صدفة».

«وهل تفسر الصدفة كل هذه الحقائق؟»

«أتستهتر بكاهن الكعبة يا كاهن الشعر؟ لمعلقتك روايات مختلفة، ونسخ مختلفة، وعدد أبياتها في كل نسخة مختلف، وترتيب أبياتها مختلف. أتستند إلى نسخة واحدة (هي التي يستند إليها لاحقاً القرشي في «جمهرة أشعار العرب») وتريدني أن أجادل قريشاً في الأمر؟»

«أسقطوا منها، وأضافوا إليها. وبقاياها فقط بين يديك..»

«من هم؟»

«هؤلاء الذين يعتقدون أن إيقاع الشعر جاء من وقع خطى إبلهم. لا تثق بي، إن شئت، ولكن لا تثق بهم.»

«وبمن أثق؟»

«بالجن التي أملت علي معلقتي.»

«وما الجن؟»

«كلمة تعني المستور..»

«هل الجن في خدمتك؟»

«يا عبد مناة، لا يخدم أحد رباً لا يخدمه. أخدم من يخدمني.»

واستدار وخرج. لحقت به. كان يسرع في ساحة المعبد المقمرة، ومعه امرأة تشبه هذه التي أتيت أنت معها، تلك، التي أتتني بالطفل.»

شرد عبد مناة، وبدا وكأنه لم يفهم، بعد، ما حدث معه. وانتبه حين قلت له:

«حجر سنمار الشعر العربي، إذاً، يبدأ بهذين الرقمين: ٧ و٢٨؟»

«نعم. تطوف العرب بالكعبة سبع مرات، أي بعدد أيام الأسبوع السبعة. كل سهم أمام الرب يرمز إلى يوم من أيام الأسبوع القمري. أو أن كل مرة يطوف فيها المؤمن حول مربع الكعبة ترمز إلى يوم من أيام الأسبوع. مجموع الأرقام القابعة في ٧ هذا، أي واحد، واثنان، وثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، تساوي ٢٨، أي أربعة أسابيع، مربعاً مقدساً، أو شهراً قمرياً «نجومياً». فرقم سبعة

يرمز إلى ربع دورة قمرية، وفي ذات اللحظة، إلى دورة قمرية كاملة. وهنا قوة سحره.»

«هل هناك مثال آخر على ما تقوله؟»

«لم أقله أنا، قاله امرؤ القيس لي في الكعبة.»

«أستميحك عذراً، ثلاث مرات، على ما بدر مني. هل هناك مثال آخر على ما قاله؟»

«مثال آخر؟ قداح الميسر التي حدثتك عنها. سبعة سهام، وعليها ٢٨ حزاً. السهم السابع وحده عليه سبعة حزوز، ومجموع الأرقام في عدد هذه الحزوز التي عليه، أي واحد، واثنان، وثلاثة، وهكذا، إلى سبعة، هو ٢٨، بعدد كل الحزوز على كل السهام. أترى؟ السهم السابع يختصر الكل، سحرياً. ويدعى «المعلى»، في الميسر، وهو أقوى سهم.»

«والشعراء؟ هل قلدوا رقمي ٧ و٢٨ هذين؟»

«لا أحد يقلد رقماً مقدساً أو رقمين، هناك رياضيات مقدسة كاملة، كما عند الكلدانيين. ورثت العرب الكثير من الكلدانيين، فارو هذا عني، أيها اليماني، ولا تنسه أبداً. الصابئة الذين حدثتك عنهم من بقايا الكلدانيين.»

«وما دخل الكلدانيين بالشعر؟»

«هؤلاء كهنة بابل، أول من قسم السنة إلى ١٢ شهراً، وسموا كل شهر باسم أحد الأبراج الإثني عشر، وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع، والأسبوع إلى سبعة أيام، وسموا كل يوم باسم أحد الكواكب السبعة السيارة. فربطوا الزمن بدوران الكواكب، ورقم سبعة، وفضلهم علينا كبير.»

***

عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، جميع بحور الشعر العربي قائمة على عشر تفعيلات: ثمانية منها سباعية، أي يبلغ عدد أحرف كل منها سبعة. فرقم ٧، وعلاقته بـ ٢٨، أي المربع المقدس، هو أساس كل تكوين هذه التفعيلات، بدونه لن نفهم شيئاً من أوزان الشعر كلها، أو من علاقتها بالدورة القمرية. فقط بعد فهم هذا يمكن فهم «الحالات الهامشية». المربع المقدس هنا يعني أربع تفعيلات سباعية عدد أحرفها ٢٨.

هناك حالتان لهذا المربع:

١ - في الحالة الأولى، يكون عدد أحرف أي بحر في عدد كبير من البحور (كالهزج المستعمل، ومجزوء الكامل، ومجزوء الوافر، ومجزوء الرجز، ومجزوء الرمل - في أوزانها الكاملة) ٢٨ حرفاً.

٢ - في الحالة الثانية، يكون المربع المقدس هو الأساس، ثم تضاف إليه «تفعيلات أخرى». مثلاً، في الأغلبية الساحقة لبقية البحور، والتي لا تدخل في الحالة الأولى (كالمنسرح، والطويل، والبسيط، والوافر، والمديد)، نجد دائماً المربع المقدس نفسه، أي رقم ٢٨. مثال على ذلك البحر الطويل (وزن معلقة امرئ القيس):

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فهو يتكون من مربعين: ٤ تفعيلات فعولن، وعدد أحرف هذا المربع ٢٠، و٤ تفعيلات

مفاعيلن، وعدد أحرف هذا المربع، وهو الأهم، ٢٨.

٣ - حالة خاصة ومهمة هي بحر الرجز:

قيل: إن الرجز أكثر أنواع الشعر شيوعاً في الجاهلية، وإن جميع البحور جاءت منه. وكل أنواع الرجز قائمة على تفعيلة واحدة هي: مستفعلن، وعدد أحرفها سبعة. وله أربعة أوزان (المربع المقدس).

الوزن الأول: مستفعلن مكررة مرتين، أي من ١٤ حرفاً، ويقلد ليلة البدر المقدسة. والثاني، مستفعلن مكررة ثلاث مرات، أي فيه ٢١ حرفاً، ويقلد ثلاثة أرباع الدورة (المثلث في المربع). والثالث، مستفعلن مكررة أربع مرات، أي ٢٨ حرفاً، ويقلد دورة قمرية كاملة من ٢٨ يوماً. والأخير، مستفعلن مكررة ست مرات (تثنية المثلث، وسأعود إليها).

٤ - لكن تقليد الدورة القمرية يمتد إلى أبعد من الوزن، ليشمل «القافية»، ومجمل البناء الفني للقصيدة. مثلاً، هناك «سمط» ينسب لامرئ القيس نفسه (والسمط قصيدة تحتوي دائماً، مهما كان شكلها الفني، على «مربع مقدس»، وهذا مهم، لأن المعلقات كانت تدعى «سمطيات»، أيضاً، والإيحاء هو أن المعلقات نفسها مبنية على المربع المقدس نفسه). يربط امرؤ القيس في سمطه هذا بين المثلث المقدس (رقم ثلاثة)، والمربع المقدس (رقم أربعة)، ورقم سبعة (مجموع ثلاثة وأربعة، كما في طقوس حجر دوار بالضبط):

«توهّمتُ من هند معالم أطلال
عفاهنّ طولُ الدهرِ في الزمن الخالي

مرابعُ من هندٍ خلتْ ومصايفُ
يصيح بمغناها صدى وعوازفُ
وغيرها هوْجُ الرياح العواصفُ
وكلّ مسفّ ثم آخرُ رادفُ

بأسحم من نوْدِ السّماكيْن هطال».

في هذا السمط ٤ أبيات (قافية الفاء) تكون المربع المقدس، وثلاثة أبيات (قافية اللام) تكون المثلث المقدس، والمجموع ٧. والسمط على البحر الطويل الذي سبق ذكر حضور المربع المقدس، أي رقم ٢٨، في وزنه. (انظر/ي مادة سمط في «لسان العرب».) قد يقال أن السمط منتحل، وأنه ليس لامرئ القيس، ولكن حتى لو كان كل الشعر الجاهلي منتحلاً، فإن هذا لا يفسر شيئاً أبداً لا عن كيف بزغ، ولا عن كيف وصل إلى هذا الحد من كمال بنائه الفني. في التاريخ لا يأتي أي شيء من عدم، أو بلا تمهيد.

مجمل القول: هناك رياضيات مقدسة كاملة، عند الكلدانيين، مثلاً، والفراعنة، والكنعانيين،

والعرب قبل الإسلام. ليست المسألة تقليد رقم أو رقمين فقط. يكفي الذكر هنا أن الرياضيات المقدسة كانت على صلة وثيقة بالفلك والتنجيم. هذا يعني حسابات معقدة، هناك عالم فلك كلداني بعث إلى أرسطو بمخطوطة يستشهد فيها بأكثر من ألف وتسعمائة عام من الملاحظات الفلكية، مثلاً. (١٣) فلنتخيل حسابات المنجمين حين تحاول أن تستند إلى هذا التاريخ من الفلك!

***

لم تطل في مكة إقامتي، فودعت عبد مناة، واعداً إياه بالرجوع، وداعياً إياه إلى زيارة موطن عمرو بن لحي، ورجعت إلى اليمن مع قافلة أخرى. كان معي القرشي، يضحك ويثرثر، كعادته، عن عميان قريش، ثم أقنعني أن نشعل ناراً نطبخ عليها، في مدخل واد ما، ثم نلحق بالقافلة.

كانت معه تلك المرأة الغامضة التي زرت كعبة مكة معها. وقعدنا نطبخ، في عرق جبل. كان اشتباك النجوم عظيماً فوقنا، وحولنا ضبع، ومغائر، وسفوح مقفرة. أكلنا وشربنا ثم ركبنا إبلنا، ولم أدر كيف سنلحق بالقافلة. وبدا القرشي نفسه قلقاً، فسألته:

«أتعَرف الطريق؟»

«سنهتدي، سنهتدي. تجارة مكة ستضيع إن لم نهتد بالنجوم، وأنا قرشي، لا تنس.»

وحدق في وجهي وضحك.

«وهل تعرف نجوم الاهتداء؟»

«ربما.»

ذهلت من جوابه، حين أكمل:

«هذه كاهنة. وتعرف.» وأشار إليها.

كانت على ناقتها، بنفس خمارها، وكان فخذاها مكشوفين، وصلبين، يلمعان في ضوء القمر، ويسترق القرشي النظر إليهما، بين فينة وأخرى، ثم نظر إليّ وضحك.

«هذه من كاهنات العزى، بأبي أنت وأمي، من كاهنات العزى. إن لم أخطئ، هذه من البغايا المقدسات الملحقات ببعض الكعبات.»

«هل قالت لك؟»

«الإشارات، نحن نقرأ الإشارات، أيها اليماني.»

«وما هي الإشارات إلى ما أشرت إليه؟»

«قيل إن العزى، أصلاً، امرأة فاتنة جداً، أيها اليماني، أكثر إغراء من نساء دوس. زهرة توشك أن تتفتح. أتخيلها، حين قعدت على كثيب رمل ناعم، ربما، تحت القمر، بثوب أسود لامع، وخمار، وحيدة، بعيداً عن حيّ أهلها. والنجوم تتلألأ. كانت طموحة، وتحن إلى النجوم، فحدقت في الأعالي، وأرادت الصعود إلى هناك. وبينما هي غارقة في هواجسها، مر عليها كائنان قيل أنهما نزلا من هناك، من بين النجوم البعيدة. كشفت طرف ثوبها عن فخذيها، وتنهدت. فخذاها كفخذي هذه الكاهنة، مستديران، مقمران، ويخفيان وعوداً بلذة غير مسبوقة. وقفا حائرين، وراوداها عن نفسها. رفعت الثوب أكثر، وقالت لهما: أحب النكاح حتى يجيء الصباح، بشرط.»

فكت خمارها، فرأيا عينين كحيلتين، ووجهاً فائق الجمال، وحلت أعلى ثوبها، ومدت يدها بين نهديها، فأخرجت صنماً صغيراً، ثم مدت يدها إلى جيبها ثانية فأخرجت خمرة، وقالت: «إما أن تعبدا هذا الصنم، أو تشربا هذه الخمر، أو تقتلا أحداً. ثلاثة خيارات، فاختارا.» فكرا طويلاً، ثم اختارا الخمر. فكت أزرار ثوبها، وتعرت على الرمل، وقضيا ليلة سكر ولذة، مثل صاحبك امرئ القيس في «ديرة جلجل». ومن شدة سكرهما باحا إليها بسر الصعود إلى السماء. وفي الغداة، وهي تتلوى تحت أحدهما، مر رجل ثالث، فخافا من افتضاح أمرهما، وقتلاه. أما هي فصعدت إلى السماء، ولم تدرِ كيف ترجع إلى الأرض، وصارت العزى، أي كوكب الصبح».

«فهمت.»

«لا، لم تفهم، فأنت من بلاد العميان!» وأوقف ناقته، وأكمل:

«سنشعل الآن ناراً، ونعقر ناقتي، ونسكر مع العزى.»

ونادى على الكاهنة:

«بأبي وأمي، هل معك خمرة؟»

«نعم»

نظر إلي وقهقه قائلاً:

«أنزل عن ناقتك، أنا سأسكر، وأنت ستعبد الأصنام!»

قعدنا حول النار، وعقرنا ناقته، وسكر، فسحب تلك الكاهنة نحو الجبل، ولم أعد أسمع غير تنهدات تفوح بمسك اللذات، ثم عاد وصاح:

«سنلحق بالقافلة أيها اليمانيّ.»

«كيف؟»

«حسناً. أنظر هناك، هناك. في خلفية السماء الداكنة. هناك، ممتدة من الشرق إلى الغرب، كنصف دائرة، أربعة عشر نجماً. هذه من نجوم الأنواء. هل تعرف ما نجوم الأنواء؟»

«سمعت بها.»

«نجوم تبعث ريحاً أو مطراً، مثلاً، فإن هبت ريح أو سقط مطر، قالت العرب: «هذا نوء النجم كذا»، أي ما بعثه هذا أو ذاك النجم. وعددها ٢٨. أربعة عشر منها دائماً ظاهرة فوق الأفق، وأربعة عشر مخفية تحته. وتشبه دولاباً يدور، إن بزغ نجم من الشرق، سقط نجم مقابل له في الأفق الغربي. عندما تدور دورة كاملة تنتهي سنة وتبدأ أخرى، وتقول العرب: «استدارت السنة». زمننا مستدير، أيها اليماني، مستدير. سنهتدي بهذه النجوم إلى اليمن.»

وضحك. وركب على ناقة الكاهنة، وأردفها خلفه. وانطلقنا في مجاهيل الصحراء. سألتني الكاهنة عما كنت أبحث في كعبة مكة، فقلت عن الصلة بين دورة القمر وشعر العرب. قالت:

«ألم ترَ صلة، بعد؟»

«لا.»

«نجوم الأنواء!»

«كيف؟»

«كل بيت من الشعر فيه ثمانية وعشرون حرفاً، يقلد المربع المقدس. كل حرف نجم، وتدور الحروف كنجوم الأنواء، من الشرق إلى الغرب، مثلاً. عندما تنتهي الدورة، أي «يبزغ» الحرف الأخير، يكون هو القافية، أي نهاية الدائرة، ثم تبدأ دورة أخرى، أي: بيت شعر جديد، ولما ينتهي تأتي قافية، نفس القافية، أو نفس النجم، لأن نجوم الأنواء هي نفس النجوم. البداية هي النهاية والنهاية هي البداية. شعر مستدير. والقافية بداية ونهاية الدائرة.»

فعلق القرشي:

«قلت لك: المعلقات معلقة في مقابل بلدان العميان في مكة، كان يجب أن تعلق في اليمن.»

قالت الكاهنة:

«تخيل نجوم الأنواء بيت شعر، مكتوباً من الشرق إلى الغرب، باتجاه دوران نجوم الأنواء، وتخيل الحروف تدور. الأحرف نجوم، ولكل نجم ريحه، ومطره، وعواصفه، وكلما هبت في روحك عاصفة، قل: هذا نوء الحرف كذا أو كذا. وستفهم الروح.» فقال القرشيّ:

«أو تخيل أنك كتبت على كل نجم حرفاً، سيكون لديك دولاب حروف. وكنجوم الأنواء، أربعة عشر حرفاً تظهر فوق خط الأفق، تدعوها العرب «صدر البيت»، وأربعة عشر مخفية، تدعوها العرب «عجز البيت». كبحر مجزوء الرجز، مثلاً، أو مجزوء الوافر، أو مجزوء الكامل، أو ما شئت. بحور كثيرة عدد أحرف كل منها ٢٨، في أوزانها الكاملة، ومقسومة هكذا.»

علقت الكاهنة:

«عجز البيت سجنجل (مرآة فارسية) لصدره، وكأن الصدر ينظر في مرآة العجز فيرى نفسه، وهذا ما نسميه بـ «التثنية»، في الرياضيات المقدسة، أي قدسية الاثنين، كـ «سفر التثنية»، عند اليهود، أو كالتوأم (اسم السهم الثاني في طقوس الميسر)،» قالت الكاهنة. فسألتها:

«ولماذا قسمت العرب البيت إلى قسمين متماثلين، هكذا؟»

رد القرشيّ:

«قل لنا أنت!»

«نسبة إلى الناقة، مثلاً، صدر الناقة، وعجز الناقة....،

وقبل أن أكمل شهق القرشيّ ضاحكاً، وقال:

«والقافية قفا الناقة. لماذا لا تترك أمرأ القيس وشأنه يا هذا؟ يقلد الكواكب فلا ترى فيه إلا قفا ناقتك! دعه وشأنه، فهو من وادي عبقر، وسكان مكة أدرى بشعابها، ستفهمه القسطنطينية قبل أن يفهمه أهله!»

وأسرع بناقته، وقال للكاهنة:

«عجيب أمر هذا اليمانيّ. أهل اليمن أذكياء، أما هذا!»

|

عندما قرر البابليون جعل سنتهم القمرية من ٣٦٠ يوماً فقط، استدار الزمن تماماً. فصار،

مثلاً، بالإمكان رسمه كدائرة هندسية من ٣٦٠ درجة، كل يوم في السنة يساوي درجة على محيط الدائرة. بدون «استدارة» الزمن هذه، لم يكن بإمكان شعر عربي مستدير أن يولد.

كان الخليل بن أحمد يعي تماماً حقيقة تقليد جميع البحور للدورة القمرية. مثلاً، عدد جميع بحور الشعر عنده، وعند تلميذه الأخفش، بما فيها المخلع، والمنهوك، والمشطور، والمجزوء، باستثناء مجموعة بحور لم تستخدمها العرب أبداً (مثل وزن المضارع التام والهزج التام). يبلغ ٢٩ بحراً، بعدد أيام شهر قمري مثالي من ٢٩ يوماً. إضافة إلى هذا، عدد التفعيلات في كل البحور إما ٣ (المثلث المقدس)، أو ٤ (المربع المقدس)، أو ٦ (تثنية المثلث)، أو ٨ (تثنية المربع)، يبقى «منهوك الرجز»، وهو مستفعلن مكررة مرتين، أي عدد أحرفه ١٤، ويقلد ليلة البدر المقدسة، كما سبق وأشرت.

كنا نصعد كثبان رمل، وكان القمر بدراً، ونجوم الصحراء تبدو أقرب إلى الأرض من أية نجوم أخرى. سمعت صفيراً بدا غناء جن، فقال القرشيّ، وهو يحدق بعيداً:

«هذا منهل، لنذهب إليه.»

«وما هي المناهل؟»

«عيون ماء أو آبار مسكونة بجنيات يغنين. وحول هذا المنهل نخل مقمر، كثير الظلال، ومسكون. من يدري، قد نجد الجنيات عاريات هناك، فنمتع أعيننا، أيها اليمانيّ.»

«سمعت أن الجنيات يتزوجن من رجالات الإنس. هل تنوي الزواج؟»

«نعم، وسيتكسر القمر كمرآة، ويحرمني من حساب الزمن، ومن اصطياد ظلال كالغزلان، ومسح الندى عن عيون الحجارة. ويمرق الهواء في الرمل فيصدر صفيراً يشبه الغناء. هل كل هذا يخيفك أيها اليماني؟»

«نعم.»

«هذا من جملة المستور في هذا البر الواسع. مستور يتجلى حتى في الكهنة، هل سمعت بالكاهن الشهير «سطيح»، الذي يعرف الفرق بين الملح والمليح؟. كان شطرة من إنسان، كشق تمرة، له عين واحدة، ويد واحدة، ورجل واحدة، ولا عظم فيه سوى جمجمته، ويطوى جسمه كثوب، ويمكن أن ترتبه حتى في خزانة، ولا عنق له، ووجهه في صدره! هذا ما يحدث للذي يسافر في كنه المستور، أو يمشي على هذا الخط الفاصل والواصل بين الجن والإنس!»

ضحكت الكاهنة ثم قالت:

«نعم، نعم، لكن المستور، عندي هو الجنين في بطن أمه! بطن المرأة الحامل لغز. يظهر الوليد على ظهر الأرض، بالولادة، ثم يعيده الموت إلى بطنها، إلى اللغز الذي جاء منه. أتعرف قول أمية بن الصلت:

والأرض معقلنا وكانت أمنا منها ولدنا ثم فيها نوئد

إن كنت أذكر قوله جيداً؟ الرحم الأول هو رحم أمنا الأرض. ونكون فيه أجنة مستورة، ونولد، أي نظهر، ثم نموت، فنعود إلى البطن الذي كنا فيه أجنة أو تراباً أو حجارة.»

«هل لهذا علاقة بوقوف امرئ القيس على الأطلال؟»

«نعم. الأطلال كبطن المرأة الحامل، تخفي في جوفها ذكريات قديمة: ملذات مع نساء، وأحبة، وحاضراً صار ماضياً، فهي بطن حامل بمعنى سابق، معنى صار مستوراً. وحملها هذا يجعل جلد المكان، أو سطحه، طلسماً، كجلد بطن المرأة الحامل. فهي، الأطلال، وشم بالإبر على «ظاهر اليد»، عند الشعراء، أو كتابة بلغة أعجمية، أو رطانة رومية، أو كتابة عبرية يخطها «حبر» (كاهن يهودي) بتيماء، أو كتاباً منقوشاً في حجر، أو رسماً أصمّ وأخرس لا يبوح بشيء للواقفين عليه، «وهل عند رسم دارس من معوّل»، كما يقول امرؤ القيس، صاحبك، أما عندي، أنا الكاهنة، الأطلال بطن أمنا الأرض، الدائرة وبطن الأم الحامل توأم واحد. مركز الدائرة جنين في بطن محيطها، خفي، قابع في نفسه، نقطة غير مرئية ولا حتى بعين القلب، كل ما حوله مغلق، كل نقطة بعيدة عنه بنفس المسافة، محيط دائري يحميه، ويستره، ويعزله، وبدونه تنهار الدائرة كلها.

هذا المحيط نفسه غامض، فهو البرزخ بين الداخل والخارج. ونجوم الأنواء تدور لأنها تخفي دائماً نصفها، وتكشف نصفها الآخر، ثم تدور، فتكشف ما كان منها مخفياً، وتخفي ما كان منها مكشوفاً. هذا هو معنى بزوغ نجم في الأفق الشرقي، في نفس الوقت الذي يسقط فيه نجم في الأفق الغربي؛ دورة المستور وهو ينكشف، توأم لدورة المكشوف وهو ينستر.

وفي جوفها، جوف دائرة الأنواء، في مكان ما، يوجد مركز لا يراه ولا حتى الكهنة. هل فهمت الآن لماذا كل حرف نجمة من نجوم الأنواء؟ فأحبل بالمعنى، كالمرأة بالجنين، كي تقرأ الإشارات. «إقرأ»، في لغتنا، تعني، أيضاً، إحبل، صر حائضاً، فليتكون جنين في رحمك، فليأتك الحيض، أيها اليمانيّ، ولتحبل بالمعنى!»

قلت لها:

«هذا حدس، يا كاهنة العزى، حدس. وقد نقبل به أو لا نقبل.»

«حدس؟ تقبل به أو لا تقبل؟ خذ مثالاً لا حدس فيه، واضحاً لعقلك، الذي يعتقد أن الواضح ليس غامضاً. امرأة تدعى «نائلة»، ورجل، يدعى «إسافا»، مارسا فعلتهما الدنيئة الشنيعة في داخل كعبة مكة. فمسختهما الآلهة حجرين، أو صنمين، إن شئت. فعلة شنيعة، ولكل شنيع عقابه. هذا حق. أما أن يتحول هذان المسخان إلى حجرين مقدسين، ويوضع صنم نائلة قرب الحجر الأسود في كعبة مكة نفسها، مثلاً، وأن لا يكتمل حج العربيّ إلى الكعبة إلا بالتمسح بهذين الصنمين، فلغز مبهم. سره ليس قدسية الشنيع، ولا عقاب الفعل الشنيع، بل قدسية السر بين الأنثى والذكر، والجنس، ودورة الحمل، والولادة، والشيخوخة، والموت! وهذا من المستور. أوليست معلقة امرئ القيس، صاحبك، مليئة بالزنا، بمضاجعة حوامل، ونساء يرضعن صغارهن، وعذارى، وغزوات، وانتهاك أعراض، ومع هذا كله كانت معلقته أول معلقة علقتها العرب على ستائر الكعبة؟ أقدس وأضخم كعباتها؟ هذه قدسية لغز عظيم ندعوه الشهوة. تخيل إسافا ونائلة: شهوتهما حولت لحمهما ودمهما إلى حجر! وحتى الآلهة لم تقف على الحياد! اسمع، أيها اليماني،

نحن نقدس ثالوثاً سرياً: اللذة، وسمو النفس، والسكر!»

«كيف؟»

رد القرشيّ:

«ألم تقرأ المعلقات يا هذا؟ طرفة بن العبد يقول في معلقته:

ولولا ثلاث هنّ من شيمة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عُوّدي،

وما هي هذه الشيم «الثلاث»؟ النشوة (بشرب الخمر)، وإغاثة المستجير (وهذا من سمو النفس)، والتلذذ بامرأة سمينة ناعمة في خيمتها في الشتاء.»

مرت لحظات صمت مثل صلاة، ورفعت الكاهنة رأسها مثل نجمة صبح أو غزالة خائفة، ثم قالت:

«إسمع غناء الجنيات في مناهلهن، اسمع.»

كان غناء ساحراً، مغرياً، وبعيداً، ومخيفاً.

«أو لا تحبل بالمشاعر يا هذا؟ وبالمخاوف، والأسئلة؟ وتقلد المرأة الحبلى؟ أسمع غناء المناهل، أو لا تحس بقدسية اللذة، وعقابها؟ اسمع.»

وأصغيت. فجأة قال القرشي:

«فلنسر نحو جنيات المناهل.»

فأجبته،

«واليمن؟ أريد العودة نحو أهلي يا هذا!».

أجاب ضاحكاً:

«ستعود إلى المألوف، بعد الغطس في المدهش. وسيبدو لك حتى المألوف غريباً، ومدهشاً، حين تعود إليه».

قعدنا عند طرف النخل، وكان الغناء قريباً وبعيداً، ويأتي من واحة خفية. عقلنا ناقتينا، وقعدنا. والرمال حالمة، وصامتة. قلت: «لا أدري أين نحن الآن».

فردت الكاهنة:

«هذه بداية فهم جديد، وشأنك وحدك.»

غرقت في التفكير وحدي، ومشيت على غير هدى إلى داخل النخل. كانت ظلال مقمرة كثيرة تسبح في الطريق، ولمعت في ضوء القمر بركة ماء صغيرة في وسط النخل. قرفصت على حافتها، وغمست يديّ في الماء. وذقته، كان مالحاً قليلاً. غسلت وجهي وشعري، وحدقت في الأفق. وفجأة رأيت سعداناً، كهذه السعادين التي يقدسونها في اليمن، ولا تركبها الجن، يقفز على أربع بين النخل. ثم رأيت حشرة كبيرة سوداء تسعى قربي. فانهمكت في مراقبتها. ثم سمعت ايقاع خطى الكاهنة خلفي، كانت تسفو الرمل بقدميها، وترفع طرف ثوبها عن فخذيها، ثم قرفصت قربي، وحدقت في الحشرة، وقالت: «لا تقتلها ولا تلمسها، فالجن تركب الحشرات. وقد تجن.»

«وما الجنون؟»

«الجنون من الجن، ملامسة المستور عنك، فيك، بك».

صورتها في الماء، ملثمة بخمارها الأسود. أزاحته ففاح طيب ما. في خلفية السماء أضواء خافتة وداكنة.

«ما هي هذه الكواكب الستة، هناك، بعيداً، في خلفية السماء؟»، سألتها.

«الثريا.»

«ماذا؟»

«الثريا. امرؤ القيس زار حيّ حبيبته، ليلاً، فوجدها وقد خلعت ثيابها لتنام، فخرج بها واجتاز ساحة الحيّ، وهي تجر وراءهما عباءة مرقطة بنقوش، كي تمحو أثريهما. وكانت الغواية قد غزت روحه. حينها نظر هو إلى السماء ورأى الثريا هذه، فبدت له كوشاح مرصع بالذهب والخرز.»

واقتربت شفتاها مني. ودبت في جسدي غواية لا تنجلي. كان خيالي يكمل لي ما اختفى من جسمها، وتعرت، أصبح الجسم طلسماً. جسمها يلمع كمرآة، وفيه كثبان. وحلت شعرها، فبدا ليل آخر. وتمددت عارية، فبدت واحدة مع كثبان الرمل الحالمة، موجة متجمدة من ضوء القمر، والغناء، وبدا لي أن كل ما أفكر فيه عن الشعر والدورة القمرية محض وهم ليلي آخر، وأنا أسافر مثل حرف الحاء في «صحراء».

«الثريا!» قالت، «الثريا! تخيل كاهن الشعر، امرأ القيس، كيف يرى الليل حيواناً ضخماً، يجثو على الأرض ويمط جسمه، أو يتخيله موجاً كموج البحر، أي كماء الرحم، ويشعر أنه يسبح كجنين أعمى في الماء البدني هذا. هبلته أمه! كم يسحر لفظاً ورؤيا!.»

وشعرت دفء جسمها يغمرني كماء رحم، ولم أعد أدري ما الفرق بيني وبينها وبين النخل والواحة والرمل، ثم نمنا بقرب بعضنا، وحدقنا معاً في النجوم. وسرح كل إلى عالمه الخاص. فجأة قالت لي:

«إن من يبحث عما خبأته الآلهة، يبحث عن أسس نفسه».

|

«منازل القمر»: دائرة هندسية على محيطها ٢٨ نقطة، كل نقطة تبعد نفس المسافة عن أختها، أي حوالي ٨٥ . ١٢ درجة. يقضي القمر يوماً وليلة تقريباً في كل منزلة، ويرجع إلى نفس موقعه، أي يختتم الدائرة، في كل ٣٢ . ٢٧ يوماً تقريباً. هذه دورة «نجومية» - أي: قائمة على رصد حركة القمر بالنسبة إلى ما كان يدعى بـ «الكواكب الثابتة».

فكرة «الزمن المستدير» في الشعر العربي على صلة بهذه الدورة بالذات. لأسباب سحرية، وعملية، اعتبرت العرب هذه الدورة من ٢٨ يوماً، بزيادة طفيفة تبلغ ثلثي يوم في الشهر، وقلدها الشعراء، والكهنة.

هذا حل بسيط، وعبقري، وقادر على ربط أكثر الظواهر تبايناً: مثلاً، على الربط بين الدورة الشهرية عند النساء، أو بالأحرى، عند عشتار، والتي تتكرر كل ثمانية وعشرين يوماً تقريباً، أي لها ايقاع قمري، وبين عدد سهام الميسر السبعة التي عليها ٢٨ حزاً، وبين عدد أحرف اللغة

العربية التي اعتبرت ٢٨، أيضاً، بدل ٢٩، (كما في حساب الجُمل السحري لاحقاً)، وبين تفعيلة سباعية هي أساس الشعر، وبين بحور ذات ثمانية وعشرين حرفاً، أي أساس «الزمن الشعري المستدير»، وبين مدارات القمر وفلكه ومنازله. هذا نظام مثالي، ثابت، وصلب. ومشكلته الوحيدة أنه مثالي وثابت وصلب.

وذلك لأن الدورة القمرية نفسها متذبذبة، وحساب الشهر القمري كله مشكلة. عندما قدم البابليون، مثلاً، سنة من ٣٦٠ يوماً، وشهراً قمرياً من ٣٠ يوماً، صارت السنة القمرية أقصر بخمسة أيام تقريباً من الشمسية. وفي كل ست سنوات سيبلغ النقص شهراً كاملاً. لذا لا بد من إضافة شهر إلى بعض السنوات العادية، لتصبح ١٣ شهراً. هذا يعني، في الشعر، أن كل من يقلد سنة قمرية من ١٢ شهراً، مثل نرسي، لا يقلد سنة من ١٣ شهراً، مثلاً.

وشهر من ٢٨ يوماً، أقصر حتى من البابلي. ومشكلة تقليده أكبر. لا بد من نظام معقول، ثابت، يمكن السير عليه، وهو شهر من ٢٨ يوماً. ولكن لا بد من أن يكون هذا النظام مرناً، متغيراً، في الشعر، لكي يتأقلم مع ذبذبات الشهر القمري وحساباته. هكذا نشأت الحاجة، عند الشعراء، إلى تفعيلة سباعية، أساساً، ولكنها تتغير حسب الحاجة. فيمكنها أن تكون سداسية أو خماسية أو رباعية، أو ثمانية، مثلاً، وهو المسمى، عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، «الزحاف». بكلمات أبسط، الزحاف يعني تفعيلة تتذبذب كالشهر القمري، وتتأقلم مع تغيراته، ومكوناته، ولحظاته المقدسة، وعلاقة الدورة القمرية بدورة الشمس، ودورة الكواكب السبعة السيارة، وحسابات دائرة الأبراج. مجمل قولي: هناك حسابات فلكية - تنجيمية معقدة، ومهمة الزحاف التأقلم معها، أي أن يجعل الشعر كله تقليداً لنظام الكون كلّه. هناك «نواة قمرية» في محور هذا البناء النجومي. وأريد الكشف عن «هذه النواة»، بأبسط صيغة ممكنة.

كمثال على تعقيدات هذه الحسابات، وزن البحر الطويل، وهو «فعولن مفاعيلن»، مكررة ٤ مرات. عدد الأحرف فيه، كحد أقصى هو ٤٨ حرفاً. لماذا ٤٨ بالذات؟

كان القدماء قد رصدوا حركات حوالي ألف وتسعة وعشرين كوكباً. وقد قسموا أغلبية هذه الكواكب إلى ٤٨ مجموعة نجومية، وأعطوا لكل مجموعة اسماً خاصاً بها. من هذه المجموعات الأبراج الإثنا عشر المعروفة (كالحمل والسرطان والحوت، إلخ.) ولأن عدد هذه المجموعات الكلي هو ٤٨، وعدد الأبراج ١٢، أي الربع، فقد تكون مربع مقدس من العددين ٤٨ و١٢. البحر الطويل يقلد هذا المربع عبر وحدة «فعولن مفاعيلن» (حيث عدد الأحرف ١٢، بعدد الأبراج)، وتتكرر الوحدة ٤ مرات (حيث عدد الأحرف ٤٨، بعدد الصور أو المجموعات). إضافة إلى هذا، هناك ٤ تفعيلات مفاعيلن في البحر الطويل (حيث عدد الأحرف ٢٨، بعدد أيام شهر قمري نجومي). هكذا يتم الربط بشكل محكم بين دورة قمرية من ٢٨ يوماً، وبين بناء بحور الشعر، وبين دائرة الأبراج وتقسيماتها إلى ١٢ برجاً، وبين تقسيم الكواكب إلى ٤٨ مجموعة. إضافة إلى ذلك، الوحدة الأساسية لهذا البحر، أي «فعولن مفاعيلن»، أي ١٢ حرفاً، هي وحدة أساسية في بحور أخرى (كالبسيط)، وبما أن أساس كل بحور الشعر ثماني تفعيلات سباعية، واثنتان

خماسيتان، أي من ٧ أو ٥ أحرف، ومجموع ٧ و٥ هو ١٢ (عدد الأبراج، وأشهر السنة، إلخ)، فإن الحسابات الفلكية والشعرية مربوطة معاً ربطاً محكماً. ولا يمكن فهم هذا البناء المقدس بدون فهم نواته: تقليد الشعر للدورة القمرية.

|

قلت لها:

«أنا أبحث عن المربع المقدس الذي تدور الحروف حوله كعرايا حول كعبة مكة، كما قال لافظ بن لاحظ. وربما أن هذا ما خبأته الآلهة، أو هذا هو أساس نفسي.»

«تخيل مربعاً ذهبياً متساوي الأضلاع؛ حوله دائرة، وزواياه على محيطها.»

«نعم. تخيلته.»

«حسناً. زواياه تقسم محيط الدائرة إلى أربعة أرباع متساوية. عند المنجمين وأصحاب الطلاسم والعزائم، وأهل الفلك، كل ربع له أسماء مختلفة، فهو ٩٠ درجة، بحساب الدرجات، وسبع منازل قمرية، بحساب المنازل، وثلاثة أبراج، بحساب الأبراج، وسبعة نجوم من نجوم الأنواء، بالحساب النوئي، وسبعة أحرف، بحساب التفعيلات الشعرية، وفصل من فصول السنة، بحساب الفصول، وكل هذه الحسابات تعني الشيء نفسه، نفسه تماماً. أسماء مختلفة والمسمى واحد.»(١٤).

«ولم كل هذه التعدد؟»

«أوجه مختلفة ومقدسة للكون. كل زاوية من المربع، مثلاً، ترمز إلى جهة من الجهات الأربع، الشرق والغرب والشمال والجنوب، أو إلى ريح من الرياح الأربع، الصبا والدبور والشمال والجنوب، أو إلى فصل من فصول السنة الأربعة، الشتاء والربيع والصيف والخريف، وهكذا، وهكذا.»

«لم أفهم.»

«حسناً. سأعيد عليك ما تريد، ولكن بهيئة أخرى. تخيل دائرة على محيطها أربع نقاط تبعد عن بعضها المسافة نفسها. صل بين النقاط بخطوط مستقيمة، فيتكون لديك المربع الذهبي. نقطة، أو زاوية منه، ترمز إلى الشرق، ونقطة إلى شمال، ونقطة إلى الغرب، ونقطة إلى الجنوب. الجهات الأربع. وكل نقطة ترمز إلى ريح من الرياح الأربع، الشمال والجنوب والصبا والدبور، وكل نقطة ترمز إلى فصل من الفصول الأربعة، وهكذا، وهكذا. هذا هو المربع الذهبي. في بيت شعر من ثمانية وعشرين حرفاً، أربع تفعيلات سباعية، كل نقطة ترمز إلى تفعيلة، أو إلى سبعة أحرف، أحرف تدور حول المربع كالعرايا حول الكعبة، أو كدورة الفصول الأربعة.»(١٥)

«هذا أغرب ما سمعه إنسان!»

«وأوضح ما تعرفه الكاهنات.»

«كاهنة من أنت؟»

«اسمع، أيها اليماني، أنت لا تبدو من هذه الأصقاع، ولا من اليمن. ولقد أحببتك، فأنا لست، أيضاً، من هذه الأصقاع.»

«من أنت، أو من أين؟»

«قيل: إن امرأ القيس سافر إلى القسطنطينية كي يستنجد بقيصر الروم ليأخذ بثأر أبيه، فأعطاه هذا عباءة موشاة بخيوط الذهب، ولكنها مسمومة، ولما لبسها وسافر، ذاب السم من العرق والحر الشديد، وتخلل السم جلده فتقرح، وسمي بـ «ذي القروح». ووصل إلى «أنقرة»، من بلاد الروم، وأوشك على الموت قرب جبل يقال له «عسيب» هناك، فسأل عن أخبار الجبل. فقيل له: إن ابنة ملك ما دفنت فيه وحيدة. فأنشد، لتلك المرأة،

أجارتنا إن المزار قريبُ وإني مقيم ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيبُ

ومات، ودفن قربها. وأنا مثل ابنة ذلك الملك، مدفونة وحدي في عرق جبل، وأتيت أنت، فإما أن أرجع إلى الحياة فأسافر معك، أو أن تموت وتدفن قربي، أو نفترق فراقاً لا لقاء بعده.»

«لم تجيبي، بعد، على السؤال. من أنت؟»

«إعلم، أيها اليمانيّ، أن من عاداتنا القديمة، والتي لم تزل بقاياها قائمة بيننا حتى الآن، أن ننتسب إلى الأم، وليس إلى الأب، أو، إن شئت، إلى البطن والرحم، وليس إلى «الظهر»، والفخذ، والصُلب. وأنا أنتسب إلى أمي، ولا أدري من هو أبي.»

«ومن أمك؟»

«كانت خادمة في الحانات، ومغنية، اسمها «زلل». جاءت بي إلى مكة قبل سنين طويلة، في أحد مواسم الحج. ولما سألها القرشيون عن أصولها اختلقت روايات لا حصر لها عن أصلها وفصلها، فقالت، مثلاً، إن أباها مات بلدغة أفعى، وأنها، أصلاً، من بيبلوس، في سوريا، حيث كان لعشتار حجر أبيض مقدس. وبعد يومين قالت: إنها ليست من بيبلوس، بل «من كاهنات الطرب» في البتراء.»

«ومن هن كاهنات الطرب؟»

«لا وجود لهن! ولكن كان في البتراء معبد مقدس للرب «ذو الشرى»، رب الخمرة والسكر والنشوة. ومن يسكر وينتشي تقول العرب عنه «لقد بطر»، نسبة إلى البتراء التي تلفظها العرب «بطرا». وتحرفت اللفظة، مع الزمن، إلى «طرب». فقالت أمي إنها «من كاهنات الطرب»، وإن أجدادها كانوا يقيمون قرب معبد «ذو الشرى»، هناك. وظلت تختلق روايات عنها وعني، حتى يئست قريش من الحقيقة.»

«وبعدها؟»

«بعدها رحلتْ عن مكة، ولم أدر أين ذهبت. قيل: إنها صارت من كاهنات كعبة اليمامة، بغيا مقدسة، ربما. وبحثت عنها، هناك، في كعبة اليمامة - وهي كعبة تطاول كعبة مكة، وتطوف بها عرب تلك النواحي - ولكن لم أعثر لها على أثر.»

«وماذا فعلت بعد سفرها؟»

«امتهنت الرحيل مع القوافل. مرة حاول عبد مناة، كاهن كعبة مكة الذي أتيت معي إليه، أن يتتبع أثري، فرحل إلى كعبة اليمامة، بحثاً عني وعن أمي، ولم يدر من يسأل من الكاهنات

هناك، فلم يسمع أحد لا بزلل ولا بي في جميع اليمامة، فرجع، ونسي كل شيء. وكلما سألوه عني قال: «إنها مثل أمها: إشاعة». ونسيتني مكة ونسيتها. وإن مت ستدفنني القوافل في عرق جبل، مثل عسيب، وستبقى فيه عظامي مقيمة ما أقام عسيب».

«ومن الطفل الذي أتيت به إلى كاهن الكعبة؟»

«لا أدري. ربما أنه لإحدى البغايا المقدسات. وأنت؟»

«أنا؟ أنا.. من زمن آخر، من المستقبل.»

«باللات والعزى، هذه أول مرة أسمع فيها عن شيء كهذا، أيها اليماني، زمن آخر؟»

«نعم.»

«من المستقبل؟»

«نعم.»

«ولكن زمننا مستدير، ولن تخرج منه، مهما فعلت، وستعود دائماً إلى أولك.»

«ربما. أنا مقيد القدمين واليدين وملقى في حفرة في زمن سابق».

شردت الكاهنة طويلاً، طويلاً جداً. ثم قالت:

«أحياناً، أيها اليماني، نحب شخصاً آخر. ونحدثه عنا، أترى؟ ولا ندري كيف ندخل إلى قلبه. ونشبه مسافراً ينوي الوصول إلى كعبة مكة: إن كان قادماً من جهة العراق، عليه السير والنجم القطبي خلف أذنه اليمنى، والمسافر من جهة مصر، يجعل النجم القطبي من خلف أذنه اليسرى، والمسافر من جهة اليمن يجعله أمامه، من الجهة اليسرى، والمسافر من الشام يجعله خلفه. ولكننا لا ندري من أية جهة نحن نسافر، ولا إلى أية جهة، ولكننا نسافر، نحو هذا الذي نحدثه عنا، وأنا الآن أسافر نحوك، وتقول إنك من زمن آخر، من المستقبل، ولا نجم قطبياً خلف أذني اليسرى أو اليمنى، ولا أمامي، ولا خلفي، لأعرف كيف أصل إليك. كيف أصل؟».

«لا أدري!»

«وكيف أبدو لك، أنا، ابنة هذا الزمن؟»

«غريبة»

«وكيف ديارك وخيام أهلك، كيف هي؟»

«أغرب»

نهضت الكاهنة عارية، وألقت نفسها في بركة الماء المالحة، تحت القمر، وكانت تنضح عرقاً، فابتل شعرها، وسبحت قليلاً، ثم رفعت رأسها نحو البدر، ومسحت الماء عن وجهها، وضحكت، قائلة:

«أرأيت بدراً كهذا في ديار أهلك؟»

«نعم»

«مثله؟»

«نعم»

«مثله تماماً؟»

«نعم.»

«إذاً، ستفهم شيئاً من روحي، وسأفهم شيئاً من روحك. سيتكرر الفهم لأن الأشياء تتكرر. قل لي: هل تحبون البدر؟»

«نعم.»

«وتقدسونه؟»

«لا.»

«فرق كبير، بين أن تقدس شخصاً وأن تحبه، فرق كبير. من نحن، عند أهلك؟»

«قعر ذاكرتهم، ربما»

«باللات والعزى! قعر ذاكرة، كالأطلال؟»

«نعم»

«وتقفون علينا كما نقف على الأطلال، وتروننا رطانة رومية أو بقايا وشم ممحو في ظاهر اليد؟»

«نعم»

«ولن نلتقي أبداً، رغم ذا، لا أنا ولا أهلك، لن نلتقي أبداً؟.»

«نعم. لن يلتقي أحد بأحد.»

«ربما لهذا السبب قررت العزى الصعود إلى السماء، ونسيت كيف ترجع، أترونها في أول الصبح، تلك المرأة الكوكب؟»

«نعم.»

«مثلنا؟»

«نعم.»

«ولم تنزل بعد إلى الأرض؟»

«لا.»

«ولا مرة؟»

«ولا مرة.»

هكذا هو الأمر، ما دامت السماء غريبة عن الأرض، هكذا هو الأمر.»

ومشت الكاهنة، بحزن عميق، وصامت، بعيداً، خلف البركة، تسفو الرمل بقدميها، وتدندن قول امرئ القيس:

«أجارتنا إنا غريبان» ها هنا وكل غريب للغريب نسيبُ»

وارتفع صوتها بالتدريج، عالياً، وساحراً، وحزيناً، وامتزج بغناء الجنيات بين النخل، والظلال، فنادى القرشي من خلفها وخلفي:

«متى سنلحق بالقافلة إلى اليمن؟»

«أي يمن أيها القرشي؟ هذا الرجل من يمن في زمن آخر، ولن نراه أبداً. »
«يمن آخر؟» صرخ القرشي ضاحكاً. فردت عليه،
«نعم»
«غير اليمن السعيد؟ يمن تعيس، ربما؟»
ضحكت الكاهنة، وحدقت في النجوم.

الهوامش:

(١) أنظر/ي تفاصيل أطوار القمر الثلاثة عند فراس السواح. لغز عشتار. دمشق، دار علاء الدين، ١٩٩٦. أما الربط بين القمر والسهام فقديم. احدى إلهات الفراعنة كان رمزها سهمين متقاطعين. عند العرب قبل الإسلام، كان الإله «ود» (القمر) صنماً بحجم إنسان في يده قوس وسهم، ويرمز لقدرته على «صيد القلوب»، في الحب. ومن اسمه جاءت كلمتا «وُد»، و«مودة» العربيتان. ويشبه «كيوبيد» عند الرومان واليونان.

(٢) قدسية رقم ٣ في العبادة العشتارية نشأت أيضاً من كون كوكب الزهرة، أي نجمة الصبح، وهي شكل قديم لعشتار، تسبح في المدار الثالث من مدارات الكواكب السبعة السيارة، فوق مداري القمر والشمس.

(٣) أنظر/ي مقدمة أبي زيد محمد أبي الخطاب القرشي. جمهرة أشعار العرب. بيروت، دار صادر.

(٤) أنظر/ي محمود سليم الحوت. في طريق الميثولوجيا عند العرب. دار النهار، بيروت، ١٩٧٩. العزى كانت الإلهة الكبرى للبتراء، ودومة الجندل منطقة يعرفها امرؤ القيس نفسه جيداً. ويبدو أن نيلوس مَرَّ بدومة الجندل والبتراء وامرؤ القيس لم يزل حياً.

(٥) أنظر/ي زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية في أوروبا. ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي. الطبعة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣. ص٤٠٣.

(٦) هي الوصيلة، والحامي، والبحيرة، والسائبة. وعمرو بن لحي، في كل ما روي عنه، يتبع «الأرقام المقدسة»، كعدد أنواع الإبل الأربعة هنا.

(٧) كل تخطيط مكة المربع كان يرتكز على «اتجاه» معين: هو نقطة «الاعتدال الربيعي» الفلكية، أي بداية الربيع. وموقع الحجر الأسود في الكعبة، أيامها، كان مختلفاً عن موقعه الحالي، ويشير إلى نقطة الاعتدال الربيعي هذه. برج مكة هو «الحوت»، حسب بطليموس، وعندما تعبر الشمس من برج الحوت إلى أول دقيقة في برج الحمل يبدأ الربيع، الذي تحتفل فيه قريش ببداية السنة الجديدة، وهذه عادة بابلية قديمة. وتخطيط الكعبة نفسه كانت له أسس فلكية – تنجيمية من هذا النوع.

أنظر/ي مقالة:

Ibrahim Allawi "Some Evolutionary and Cosmlogical Aspects to Early Islamic Town Planning". Theories and Principles of Design in the Architecture of Islamic Societies. Harvard 1988. p.58.

(٨) شكل خاتم الملك سليمان الذي كان يحكم به الجن كان «مثمناً»، أي من مربعين متداخلين. جذور قدسية هذا الشكل فرعونية. كان الفراعنة يقدسون المربع والمثلث، وتثنية المربع (أي: الثامون) وتثنية المثلث (الشكل السداسي).

(٩) لعل من المفيد التذكير هنا بأن قدسية المربع غزت حتى تخطيط المدن: مدينة بابل نفسها، مثلاً، كانت مخططة على أساس المربع: شارع أفقي وآخر عمودي، أحدهما من الشرق إلى الغرب، والآخر من الشمال إلى الجنوب. ويشيران إلى نقاط البوصلة الأربع، أو الجهات الأربع. ومن أيامها حتى الآن لم يزل المربع من أسس تخطيط المدن في الشرق والغرب.. أنظر/ي تفاصيل هذا عبر التاريخ في كتاب لويس ممفيلد «المدينة في التاريخ». وفيما يخص المجتمعات الإسلامية في:

Islamic Patterns. An Analytical and Cosmological Approach. Keith Kritchlow. Thames and Hudson, 1989.

(١٠) أنظر/ي موسوعة الفولكلور والأساطير العربية. شوقي عبد الحكيم.

(١١) النسيء مسألة فلكية. مثلاً، عندما حوّل الفراعنة سنتهم إلى سنة بابلية من ثلاثمائة وستين يوماً، بدل

٣٦٥، سميت الأيام الخمسة المفقودة «الأيام النسيئة»، أي «المؤجلة»، وكانت مقدسة. أما العرب، قبل الإسلام، فكانت تقتتل كعادتها، وعندما يأتي موعد الأشهر الحرم، حيث يمنع أي سفك للدماء، تؤجل العرب الشهر الأول من هذه الأشهر، أي شهر صفر، إلى الشهر الذي يليه، لمواصلة القتال، وفي السنة التالية، إن استمر الوضع، تؤجله مرة أخرى. فيدور الشهر على جميع أشهر السنة، حتى يرجع إلى موقعه الأول منها. وعند ذلك تقول العرب: «استدارت السنة». مجمل القول: هذا المفهوم للنسيء كان يولّد مفهوماً خاصاً بالعرب لـ «الزمن المستدير»، أي بالزمن كدائرة مقدسة.

(١٢) أنظر/ي حول هذا، وحول الرياضيات المقدسة عند الفراعنة والعبريين، «السحر في التوراة والعهد القديم». شفيق مقار. دار الريس، ١٩٩٠.

(١٣) حول هذا، ومعلومات أخرى واردة في النص عن العلوم البابلية، وغيرها، أنظر/ي مرغريت روثن. علوم البابليين. دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠. ترجمة يوسف حبي. وكذلك: إخوان الصفاء. رسائل إخوان الصفاء. الرسائل الخاصة بالرياضيات والأسطرونوميا. وكذلك: مؤيد الدين العرضي. تاريخ علم الفلك العربي. كتاب الهيئة. مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص٨٤-٩٠، وابن منظور، لسان العرب، مادة «نوأ».

(١٤) كل ظواهر الدنيا المهمة يمكن ترتيبها على هيئة «دولاب» في ثقافات قديمة كثيرة. أنظر/ي، مثلاً، فكرة الدولاب عند الهنود الحمر في:

Kenneth Meadows. Medecine De La Terre. La voie Chamanique. Paris, 1989.

(١٥) أنظر/ي العلاقة بين المربع والمثلث والمسدس ودائرة الأبراج في رسائل إخوان الصفاء. الرسالة الثالثة من القسم الرياضي. المجلد الأول. وفي المصادر المذكورة بالإنكليزية سابقاً عن الهندسة المقدسة.